مَقَامَةُ "الصَّلاحِ" لِلزَّمَخْشَرِيّ (ت ٥٣٨هـ)
دِرَاسَةٌ بَلاغِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

The Maqāma of "Righteousness" by Al-Zamakhsharī (d. ٥٣٨ AH): A Rhetorical Analytical Study

د. وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي (*)

ملخَّص البحث

يُعدُّ الإمامُ الزمخشريُّ واحدًا من أئمة علوم البلاغة في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس الهجري، حيث تُوُفِّيَ عامَ (٥٣٨) هجرية، وقد ترك تراثًا ضخمًا نافعًا خدم به علومَ العربيَّةِ في مختلف فروعها، حيث سطَّر في المعجمات والنحو والأمثال والتفسير والمواعظ والخطب، وله مقاماتٌ مشهورةٌ معروفةٌ في عدةِ موضوعاتٍ، ومن بين هذه الموضوعات مقامةٌ مطوَّلةٌ موسومةٌ بالصلاح، يُذَكِّرُ فيها بالزُّهدِ والورعِ وعدمِ الرُّكونِ لِملذَّاتِ الدُّنيا وشهواتِها والاستعداد للدَّارِ الباقية، وعدم الاغترار بالدَّار الفانية، وغير ذلك.

وقد ألَّف الزمخشريُّ مقامةَ الصَّلاحِ هذه بأسلوبٍ أدبيٍّ شائقٍ رائقٍ يميلُ إلى السُّهولةِ والوُضوحِ قد غصَّ بكثيرٍ من ألوان البلاغة بفروعها الثلاثةِ البيانِ والمعاني والبديعِ، حيثُ إنَّه عالمٌ بلاغيٌّ من طرازٍ فريدٍ، وكيف لا؟ وهو مِنْ تأثُّرِهِ بعلمِ البلاغةِ وتشبُّعِهِ به قد ألَّفَ معجمَهُ النَّفِيسَ الَّذِي أسماه «أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ»، وقد ذكر فيه الاستعمالاتِ الحقيقيَّةَ للمفردةِ

(*) أستاذ مساعد البلاغة والنقد ،كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات– جامعة الأزهر، القاهرة.

الإيميل الجامعي: wadedaelshenawy١٦٧١.el@azhar.edue.eg

والاستعمالاتِ المجازيَّةَ، وقد فصل بينهما، فكان يُقدِّمُ المعانيَ الحقيقيَّةَ على المجازيَّةِ، وأيضًا قد غلبَ على تفسيرِهِ الفريدِ في بابِهِ الطابَعُ البلاغيُّ والأسلوبُ البيانيُّ وسمَّاهُ: الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، وهو مشهورٌ ومعروفٌ بالكشَّاف.

والبحث الذي أنا بصددِهِ بحثٌ في ثمرةٍ من الثمارِ اليانعةِ الماتعةِ لهذا العالِمِ البيانيّ، وهو حول إحدى مقاماتِه التي غصَّتْ وعجَّتْ بكثيرٍ من الفنونِ البلاغيَّةِ.

وعنوانُهُ «مَقَامَةُ الصَّلَاحِ لِلْإِمَامِ الزَّمَخْشَرِيّ(ت٥٣٨هـ) دِرَاسَةٌ بَلَاغِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ».

وهذا البحثُ يتناول أسلوبَ الإمامِ الزمخشريّ في المقامةِ التي عُرِفَتْ بعُنوانِ «الصلاح»، موضحًا طريقتَه في توصيلِ الفكرةِ ووسائلِ الإقناعِ التي استخدمها الزمخشريُّ؛ لكي يكونَ القارئُ لها حاضرَ الذهنِ، فيصل لدرجةِ الإقناعِ عن طريقِ التسويةِ بين جملِ المقامةِ وعباراتِها كما سيتضح من خلال التحليل للمقامة.

وقد اتَّضح جليًّا أنَّ هذه المقامة تُعدُّ واحدةً من الأعمال الأدبيَّة البارزة التي تُظْهِرُ مدى براعةِ الزَّمخشريّ في استعمال اللغة والبلاغة، فهو يستعملُ التشبيهَ والاستعارةَ لتوضيحِ أفكارِهِ وجعْلِها أكثرَ تأثيرًا، ويستخدمُ الأسلوبَ الإنشائيَّ من أمرٍ ونهيٍ لتوجيه المتلقّي؛ ممَّا يزيدُ من تأثيرِ النصِّ، ويُعزِّزُ الرسالةَ المرادَ توصيلُها.

***

الكلمات المفتاحيَّة

(بَلاغِيَّةٌ، تَحْلِيلِيَّةٌ، دِرَاسَةٌ، الزَّمَخْشَرِيّ، مَقَامَةُ الصَّلاحِ)

***

Abstract

Imam Al-Zamakhsharī is regarded as one of the eminent scholars of rhetoric in the late ٥th and early ٦th centuries AH, having passed away in ٥٣٨ AH. He left behind an extensive and valuable intellectual legacy that greatly contributed to various branches of Arabic sciences, including lexicography, grammar, proverbs, exegesis, sermons, and oratory. Among his notable contributions are his well-known maqāmāt (literary assemblies) that cover diverse topics. One of these is a lengthy maqāma titled Al-Ṣalāḥ ("Righteousness"), in which he advocates asceticism, piety, and detachment from worldly pleasures and desires, urging preparation for the eternal abode while warning against being deceived by the transient world.

Al-Zamakhsharī authored this maqāma in an eloquent, refined literary style characterized by clarity and simplicity, yet brimming with various elements of rhetoric across its three branches: bayān (eloquence), ma‘ānī (semantics), and badī‘ (embellishment). A uniquely skilled rhetorician, he was profoundly influenced by the art of rhetoric, to the extent that he authored his renowned lexicon, Asās Al-Balāgha ("The Foundation of Eloquence"), in which he meticulously distinguished between the literal and figurative meanings of words, always prioritizing literal meanings over figurative ones. This rhetorical inclination is also evident in his exceptional Qur’anic exegesis, titled Al-Kashshāf ("The Unveiler of the Realities of the Mysteries of Revelation and the Insights of Interpretation"), which is widely recognized as Al-Kashshāf.

The present study examines one of the distinguished fruits of this rhetorical scholar’s legacy: his maqāma Al-Ṣalāḥ. The research is titled: The Maqāma of “Righteousness” by Imam Al-Zamakhsharī (d. ٥٣٨ AH): A Rhetorical Analytical Study.

This study delves into Al-Zamakhsharī’s approach in the maqāma, known as Al-Ṣalāḥ, shedding light on his method of conveying ideas and the persuasive techniques he employed to engage the reader and enhance comprehension. By achieving harmony and balance in the phrasing and sentences of the maqāma, Al-Zamakhsharī effectively delivers his intended message, as demonstrated through an analysis of the text.

It becomes evident that this maqāma stands as one of Al-Zamakhsharī’s remarkable literary works, showcasing his exceptional proficiency in utilizing language and rhetoric. He employs similes and metaphors to clarify his concepts and enhance their impact. Additionally, he adopts directive rhetorical styles, such as commands and prohibitions, to guide the audience, thereby amplifying the text's influence and reinforcing its intended message.

Keywords

The Maqāma of Righteousness– Al-Zamakhsharī– Study– Rhetoric – Analysis

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى، والصلاةُ والسلامُ على مَنْ كان أفصح العرب لسانًا وأصدقهم بيانًا وأبلغِهم منطقًا، سيدِنا مُحَمَّد الذي آتاه ربه –جل وعلا– جوامع الكلم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد:

فإنَّ الإمامَ الزمخشريَّ واحدٌ من أئمةِ علومِ البلاغةِ في أواخرِ القرنِ الخامسِ الهجريِّ وأوائلِ القرنِ السَّادسِ الهجريِّ، حيثُ تُوفِّيَ عامَ (٥٣٨) هجرية، وقد ترك تراثًا ضخمًا نافعًا خدم به علومَ العربيةِ في مختلفِ فروعِها، حيث سطَّر في المعجماتِ والنحوِ والأمثالِ والتفسيرِ والمواعظِ والخطب، وله مقاماتٌ مشهورةٌ معروفةٌ في عدةِ موضوعاتِ، ومن بين هذه الموضوعاتِ مقامةٌ مطولةٌ موسومةٌ بالصلاحِ، يُذكِّرُ فيها بالزُّهدِ والورعِ، وعدمِ الركون لملذَّاتِ الدنيا وشهواتها، والاستعداد للدار الباقية، وعدمِ الاغترارِ بالدارِ الفانيةِ، وغيرِ ذلك.

وقد ألَّفَ الزمخشريُّ مقامةَ الصلاحِ هذه بأسلوبٍ أدبيٍّ شائقٍ رائقٍ يميلُ إلى السهولةِ والوضوحِ، قد غصَّ بكثيرٍ من ألوان البلاغة بفروعها الثلاثة: البيان والمعاني والبديع؛ حيث إنَّه عالمٌ بلاغيٌّ من طرازٍ فريدٍ، وكيف لا؟ وهو مِنْ تأثُّرِهِ بعلم البلاغة وتشبُّعِهِ به قد ألَّف معجمَه النفيسَ الذي أسماه «أساس البلاغة»، وقد ذكر فيه الاستعمالات الحقيقية للمفردة والاستعمالات المجازية، وقد فصل بينهما، فكان يقدِّم المعاني الحقيقيَّة على المجازيَّة، وأيضًا قد غلب على تفسيرِهِ الفريدِ في بابِهِ الطابعُ البلاغيُّ والأسلوبُ البيانيُّ، وسمَّاه: «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»، وهو مشهورٌ ومعروفٌ بالكشَّاف الذي قال فيه [من البسيط]:

إِنَّ التَّفَاسِيرَ فِي الدُّنْيَا بِلَا عَدَدٍ ∴ وَلَيْسَ فِيهَا لَعَمْرِي مِثْلُ كَشَّافِـــي

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْهُدَى فَالْزَمْ قِرَاءَتَهُ ∴ فَالْجَهْلُ كَالدَّاءِ وَالْكَشَّافُ كَالشَّافِي[1]

والبحثُ الذي أنا بصدده عنوانُه «مَقَامَةُ الصَّلَاحِ لِلإمامِ الزَّمَخْشَرِيّ (ت ٥٣٨ هـ) دِرَاسَةٌ بَلَاغِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ»، وهو بحثٌ في ثمرةٍ من الثمار اليانعة الماتعة لهذا العالم البيانيّ، حولَ إحدى مقاماتِهِ التي غصَّتْ وعجَّتْ بكثيرٍ من الفنونِ البلاغيَّةِ، أتناوله بالتحليل البلاغيّ.

سبب اختيار الموضوع

ويرجعُ سببُ اختيارِ هذا الموضوعِ إلى أنَّ هذه المقامةَ ذاتُ موضوعٍ له أهميَّةٌ كبيرةٌ في توجيهِ سلوكيَّاتِ الإنسانِ في منهجِ حياتِهِ وطريقةِ عيشتِهِ، والمقامةُ في الحقيقةِ استعمل فيها الزمخشريُّ كثرةً وافرةً من فنون أبواب البلاغة الثلاثة، ممَّا جعلني أطوف على مُعظمِها، فأردتُ أنْ أعرفَ كيف وظَّف الإمامُ الزمخشريُّ هذه الألوان البلاغيَّةَ لتقريرِ المعنى وتوضيحِه.

حدود البحث ومشكلاته

هذا البحثُ يتناولُ أسلوبَ الإمامِ الزمخشريّ في المقامةِ التي عُرِفتْ بعنوانِ «الصَّلَاح»، موضحًا طريقتَه في توصيلِ الفكرةِ ووسائلِ الإقناعِ الَّتي استخدمها الزمخشريُّ؛ لكي يكونَ القارئُ لها حاضرَ الذِّهنِ، فيصلَ لدرجةِ الإقناعِ عن طريقِ الأساليبِ الإنشائيَّةِ المُستخدمةِ في المقامةِ، والتسويةِ بينَ جُمَلِ المقامةِ وعباراتِها، وغيرِ ذلك من الأساليب البلاغيَّةِ، كما سيتَّضِحُ من خلالِ التحليلِ البلاغيّ لنَصِّ المقامةِ.

الدراسات السابقة

لم يُفردْ لهذه المقامةِ بحثٌ مستقلٌّ بالتحليل البلاغيّ، وأحسب أنَّ هذا البحثَ هو أوَّل من يخوضُ هذا المغمارَ، وقد وُجدتْ دراساتٌ أخرى لمقامات الزَّمخشريّ عمومًا، تناولتْ مقاماتِهِ بالشرحِ الأدبيّ والأسلوبيّ، أو دراسةِ نظريَّاتٍ أدبيَّةٍ في مقاماتِهِ، ومن هذه الدراساتِ:

- مقامات الزمخشريّ دراسة موضوعيَّة فنيَّة، د/ كمال عبد الفتاح حسن، بحثٌ منشورٌ في مجلة (سُرَّ مَنْ رأى)، جامعة سامرَّاء، العراق، المجلد الرابع، العدد التاسع، السنة الرابعة، شباط ٢٠٠٨م.
- التَّأويل في شرح مقامات الزمخشريّ ليوسف بقاعيّ، رسالة ماجستير غير منشورة، إعداد/ شفيعة اليماني، الجمهورية الجزائرية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، كلية الآداب اللغات،

تخصص اللغة والأدب العربي، فرع النظريَّة الأدبيَّة المعاصرة، ٢٠١٢م.

- مقامات الزمخشريّ رؤيةٌ وتأصيلٌ، د/ هارون الربابعة، د/ نبيل حسنين، د/ زياد أبو لبن، بحثٌ منشورٌ في مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد التاسع والثلاثون، تشرين الأول ٢٠١٦م.
- بلاغة الخطاب في مقامات الزَّمخشريّ دراسةٌ أسلوبيَّةٌ، مذكرة ماستر، إعداد: بجاوي دنيا، وبوبش فاطمة الزهراء، كلية الآداب واللغات، تخصص النقد الحديث والمعاصر، جامعة مُحَمَّد خيضر بسكرة، الجزائر، ٢٠٢١م.
- تداوليَّة الخطاب السَّرديّ في مقامات جار الله الزَّمخشريّ– مقاربة في نماذج مختارة، رسالة ماجستير غير منشورة، إعداد/ عماد شوكال، جامعة العربي التبيسي، تبسة– الجزائر، كلية الآداب واللغات، تخصص النقد الحديث والمعاصر، ٢٠٢٢م.

وتنفردُ دراستي عن الدراساتِ السابقةِ بتناوُلِ مقامةِ (الصَّلاحِ) من مقاماتِ الزمخشريّ بالدراسةِ البلاغيَّةِ التحليليَّةِ، مُبيّنةً فيها بلاغةَ تراكيبِهِ، وما استخدمهُ من أساليبَ لإقناعِ المتلقّي، وإيصالِ المعنى إليهِ، ومُبرزةً ما فيها من حسن السبك، ودقة العبارة، وجمال الأسلوب.

منهج البحث

وهذه الدراسةُ استعنْتُ فيها بالمنهجِ الوصفيّ بأدواتِهِ من الاستقراءِ والتحليلِ والاستنباطِ، حيث قرأتُ المقامةَ قراءةً متأنّيةً متأمّلةً، وحلَّلْتُ أساليبَها التراكيبيَّةَ، وبيَّنْتُ ما فيها من ألوانِ البلاغةِ، وكيف كان توظيفُها من الإمامِ الزمخشريّ ليُضفِيَ على الأسلوبِ بَهاءً وسناءً ومتانةً ورصانةً.

خطة البحث

واقتضت طبيعةُ هذا البحث أن يكونَ في مقدمةٍ وتمهيدٍ ومبحثٍ وخاتمةٍ، وبعضِ الفهارسِ الكاشفةِ عن محتوياته.

فالمقدمةُ تضمنتْ أهميةَ موضوعِ البحثِ، وسببَ اختيارِهِ، وحدودَهُ ومشكلاتِهِ، والدراساتِ السابقةَ عليهِ، ومنهجَهُ، وخُطَّتَهُ.

والتمهيد جاء بعنوان: الإمامُ الزمخشريُّ ومقاماتُهُ، وفيه:

أولًا: ترجمةٌ موجزةٌ للإمامِ الزمخشريِّ ومقاماتِهِ.

ثانيًا: مقاماتُ الزمخشريّ.

ومبحثٌ بعنوان: التحليلُ البلاغيُّ لمقامةِ الصَّلاحِ.

ثم الخاتمةُ وتضمنتِ النتائجَ والتوصياتِ التي توصلتْ إليها الدراسةُ.

ثم ثبتُ المصادرِ والمراجعِ.

هذا وبالله التوفيقُ، وصلى الله – تعالى– وسلم على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

****

تمهيدٌ

الإمامُ الزمخشريُّ ومقاماتُهُ

أولا: ترجمة موجزة للإمام الزمخشري ومقاماته

الإمامُ الزَّمخشريُّ واحدٌ من أساطينِ البيانِ العربيِّ، وإنَّ تراثَه الفكريَّ لينطقُ بهذا، حيثُ تركَ تراثًا ضخمًا نافعًا رائعًا يغلبُ عليهِ الطابَعُ البلاغيُّ، حيثُ شغل نفسَهُ بوجوهِ الإعجازِ اللُّغويِّ عامةً وأسلوب الإعجاز القرآني خاصةً.

وفي السطورِ التاليةِ أقدِّمُ ترجمةً مختصرةً عن هذا العالم الألمعيِّ الذي عكف على تراثِهِ العلميِّ كثيرٌ من الباحثين والدارسين.

اسمه ونسبه ومولده:

هو «أبو القاسم محمود بن عمر بن مُحَمَّد بن عمر الخوارزميّ الزمخشريّ، وكانت ولادتُهُ يومَ الأربعاءِ السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبعٍ وستين وأربعمائة بزمخشر»[٢].

ويُلقَّبُ بأبي القاسم، كما يُلقَّبُ بجار الله؛ لأنه جاور البيت الحرام حوالي عشرة أعوام، حتى إنَّهُ قد ألَّف في هذه الفترة تفسيرَه النفيسَ الذي أسماه (الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).

يقول ابنُ خلِّكان: «وكان قد سافر إلى مكةَ –حرسها الله تعالى–، وجاور بها زمانًا، فصار يقال له «جار الله» لذلك، وكان هذا الاسم علمًا عليه»[٣].

وله بيتٌ شعريٌّ يصرِّح فيه بذلك، فيقول [من الطويل]:

أَنَا الْجَارُ جَارُ اللهِ مَكَّةُ مَرْكَزِي ∴ وَمَضْرِبُ أَوْتَادِي وَمَعْقِدُ أَطْنَابِي[٤]

مؤلفاته:

«عاش الزَّمخشريُّ إحدى وسبعين سنةً، مُتفنِّنًا في التفسير والحديث والنحو واللغة والبيانِ، وكان إمامَ عصرِهِ في فنونِهِ، وله التصانيف البديعة الكثيرة الممدوحة الشهيرة، عدَّد بعضُهم منها نحو ثلاثين مصنَّفًا في التفسير والحديث والنحو والفقهِ واللغةِ والأمثالِ والأصولِ والعروض

والشعرِ»[٥]، فالزمخشريُّ ألَّف في كثيرٍ من فروع العلم والمعرفة، يقول عنه أبو البركات الأنباريّ: «وأخذ عن أبي مضر، ورثاه ببيتين، هما: [من الطويل]

وَقَائِلَةٍ: مَا هَـــذِهِ الدُّرَرِ الَّتِـــــي ∴ تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ؟

فَقُلْتُ لَهَا: هِيَ الدُّرَرُ اللَّوَاتِي حَشَا بِهَا ∴ أَبُو مُضَرٍ أُذْنِي تَسَاقَطُ مِنْ عَيْنِي[٦]

وصنَّف كتبًا حسنةً، منها كتاب الكشَّاف عن حقائق التنزيل، وكتاب الفائق في غريب الحديث، وكتاب ربيع الأبرار، وكتاب أسماء الأودية والجبال، وكتاب المفرد والمؤلف في النحو، وكتاب المفصل في النحو، وكان يزعم أنه ليس في كتاب سيبويه مسألة إلا وقد تضمنها هذا الكتاب، ويحكى أنَّ بعض أهل الأدب أنكر عليه هذا القول، وذكر له مسألة من كتاب سيبويه، وقال: هذه ليست فيه، فقال: إنها إن لم تكن فيه نصًّا فهي فيه ضمنًا؛ وبيَّن له ذلك»[٧].

و«لأبي القاسم من التصانيف: الكشاف في تفسير القرآن، والفائق في غريب الحديث، نكت الإعراب في غريب الإعراب (في غريب إعراب القرآن)، وكتاب متشابه أسماء الرواة، ومختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة، والكلم النوابغ في المواعظ، وأطواق الذهب في المواعظ، ونصائح الكبار، ونصائح الصغار، ومقامات في المواعظ، ونزهة المستأنس، والرسالة الناصحة، ورسالة المسأمة، والرائض في الفرائض، ومعجم الحدود، والمنهاج في الأصول، وضالّة الناشد، وكتاب عقل الكل، والأنموذج في النحو، والمفصّل في النحو أيضًا، والمفرد والمؤلف فيه أيضًا، وصميم العربية، والأمالي في النحو، وأساس البلاغة في اللغة، وجواهر اللغة، وكتاب الأجناس، ومقدمة الأدب في اللغة، وكتاب الأسماء في اللغة، والقسطاس في العروض، وحاشية على المفصل، وشرح مقاماته، وروح المسائل، وسوائر الأمثال، والمحاجاة ومتمم مهام أرباب الحاجات في الأحاجي والألغاز، والمفرد والمركب في العربية،.... وغير ذلك[٨].

مذهبه:

والإمامُ الزمخشريُّ كان معتزلي المذهب، "معتزلي الاعتقاد، متظاهرًا به، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحبًا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم

المعتزلي بالباب، وأول ما صنف كتاب "الكشاف" كتب استفتاح الخطبة "الحمد لله الذي خلق القرآن"، فيقال إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه، فغيَّره بقوله: "الحمد لله الذي جعل القرآن"، و«جعل» عندهم بمعنى «خلق»"[٩].

محنته:

والإمام الزمخشري امتُحنَ بمحنةٍ شاقَّةٍ، حيث تعرَّضَ لقطعِ إحدى رجليْه، يقول أصحاب كتب التراجم عن ذلك:

«ورأيتُ في تاريخ بعض المتأخرين أنَّ الزمخشريَّ لمَّا دخلَ بغدادَ واجتمعَ بالفقيهِ الحنفيِّ الدامغانيّ، سأله عن سببِ قطعِ رِجلِهِ، فقال: دعاء الوالدة، وذلك أنِّي في صبايَ أمسكتُ عُصفورًا وربطْتُه بخيطٍ في رجله، وأفلتَ من يدي، فأدركتُهُ وقد دخلَ في خرقٍ، فجذبتُه فانقطعتْ رجلُهُ في الخيطِ، فتألَمَتْ والدتي لذلك، وقالت: قطعَ اللهُ رِجلَ الأبعدِ كما قطعت رجله؛ فلما وصلتُ إلى سنِّ الطلبِ رحلتُ إلى بُخارَى لطلبِ العلمِ، فسقطتُ عنِ الدابَّةِ فانكسرتِ الرجلُ، وعملت علي عملًا أوجب قطعَها؛ واللهُ أعلمُ بالصحَّةِ»[١٠].

وفاته:

«وتُوُفِّيَ ليلةَ عرفةَ سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائةٍ، بجرجانية خوارزم، بعد رجوعِهِ من مكةَ، رحمه الله تعالى، ورثاه بعضُهُمْ بأبياتٍ، ومن جملتها: [من البسيط]

فَأَرْضُ مَكَّةَ تَذْرِي الدَّمْعَ مُقْلَتُهَا ∴ حُزْنًا لِفُرْقَةِ جَارِ اللَّهِ مَحْمُودِ»[١١]

****

ثانياً: مقامات الزمخشري

ومن بينِ تُراثِ الزمخشريِّ الفكريِّ الثَّرِّ الخصبِ هذه المقاماتُ التي أنشأها وعُرفتْ بمقاماتِ الزمخشريّ، وقد تمَّ إخراجُها وطباعتُها بهذا الاسمِ في كثيرٍ من دورِ الطباعةِ والنشرِ، ومن بينِها: دارُ الكتب العلمية.

والمقاماتُ لونٌ أدبيٌّ شائقٌ رائقٌ عادةً ما يختار الأديبُ موضعًا محددًا بعينِهِ، فيكتب فيه، ولا يخرج عنه إلى غيرِهِ بأسلوبٍ غالبًا ما يشتملُ على الجناسِ والسجعِ، والطباقِ والمقابلةِ والتوريةِ،

والتناسقِ بين الجملِ، والتناسبِ بين الفقراتِ، وقد يلجأ فيه الأديبُ إلى الفكاهةِ والدّعابةِ الخفيفةِ ونحوِ ذلك، واشتهر في الكتابةِ في هذا اللونِ الأدبيّ أبو القاسم الحريريّ، وبديع الزمان الهمذانيّ، وكل مقامةٍ من المقامات كانت تحمل عنوانًا، وتشتهر به، ويكون لقبًا عليها[١٢].

وبديع الزمان الهمذانيّ هو أوَّل مَنْ أعطى كلمة «مقامة» معناها الاصطلاحيّ بين الأدباء، إذ عبَّر عن مقاماتِهِ المعروفة وهي جميعُها تُصوّرُ أحاديثَ تُلقى في جماعاتٍ، فكلمة «مقامة» عنده قريبةُ المعنى من كلمة «حديث»[١٣].

وكتابُ مقاماتِ الزمخشريّ ضمَّ بين طيَّاتِهِ خمسينَ مقامةً، جُلُّ موضوعاتِها في التَّذكُّرِ والاعتبارِ والرِّضا والقناعةِ والعملِ لليومِ الآخرِ.

موضوعات مقامات الزمخشري:

تضمنت مقامات الزمخشري الموضوعات الآتية:

مقامة الصلاح – موضوع البحث– ولي وقفةٌ معها فيما يلي، وله مقامةٌ في التقوى، والرضوان، والارعواء، والزاد، والزهد، والإنابة، والحذر، والاعتبار، والتسليم، والصمت، والطاعة، والمنذرة، والاستقامة، والطيب، والقناعة، والتوقي، والظلف، والعزلة، والعفة، والندم، والولاية، والعمل، والتوحيد، والعبادة، والتصبر، والخشية، واجتناب الظلمة، والتهجد، والعبادة، والدعاء، والتصدق، والشكر، والأسوة، والنصح، والمراقبة، والموت، والفرقان، والبعد عن الهوى، والتماسك، والشهامة، والخمول، والعزم، والصدق، والنحو، والعروض، والديوان، وأيام العرب.

ومجموعُ مقاماتِ الزَّمخشريّ خمسونَ مقامةً، موضوعها النُّصحُ والإرشادُ والعظةُ، موجَّهةٌ إلى نفسِهِ، مُصدَّرةٌ كلٌّ منها بقولِهِ: «يا أبا القاسمِ»[١٤]، ولكلٍّ منها عنوانٌ[١٥].

وقد استعار الزَّمخشريُّ في مقاماتِهِ المنهجَ العامَّ من مقامات بديع الزمان الهمذانيّ، مُستغنيًا عن أمريْنِ؛ الأوَّل: الرَّاوية، فليس لديه رُواةٌ؛ لأنَّه بنى عملَهُ في مقاماتِهِ على المناجاة الدَّاخليَّة، فروى عن حياتِهِ ونفسِهِ، والثَّاني: أنَّه جعل سيرتَهُ الذَّاتيَّةَ موضوعًا للمقاماتِ، مُستغنيًا عن حياةِ

الفقراءِ واللصوصِ والمُحتالينَ والمُترفينَ، مُعرضًا عنها إلى حياةِ العلماءِ الذين أظهروا الدِّين وقد طلبوه للدُّنيا وللسلاطينِ؛ فكان مُجدِّدًا في فنِّ المقاماتِ من هاتيْنِ الجهتيْنِ[١٦].

و"الصَّلاحُ ضدُّ الفسادِ، وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعالِ، وقُوبل الصَّلاحُ في القرآن تارةً بالفساد، وتارة بالسّيّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، وقال –جلَّ شأنُهُ– ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٢]"[١٧].

والصلاحُ فضيلةٌ من أعظمِ الفضائلِ، تتجلَّى في التزامِ الإنسانِ بالقيمِ والسلوكِ الحسنِ، والتزامِهِ كذلك بإصلاحِ علاقتِهِ بربِّهِ، وبنفسِهِ، وبالآخرين؛ «فعلاقةُ العبدِ بربِّهِ يُصلِحُها الخوفُ، والخشيةُ، والخشوعُ.. ونحو ذلك، أمَّا العلاقةُ بين العبد ونفسه فيصلحها الطمأنينة، والسكينة، وانشراح الصدر.. ونحو ذلك، وفيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالآخرين فإنها تصلح بالألفة، والرأفة، والرحمة.. ونحو ذلك، ومردُّ ذلك جميعِهِ إلى صلاحِ القلب وما يتبعه من صلاحِ الجسدِ»[١٨].

****

مَقَامَةُ الصَّلَاحِ(١٩)

«يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَتَّامَ تَلْهُو وَتَلْعَبُ وَغُرَابُ الْبَيْنِ فَوْقَكَ يَنْعَبُ، وَإِلَامَ تَرُوحُ فِي الْتِمَاسِ الْغِنَى وَتَغْدُو، وَسَائِقُ الرَّدَى وَرَاءَكَ يَحْدُو، وَفِيمَ تَجُوبُ لِارْتِيَادِ الْمَالِ الْأَوْدِيَةَ وَالْمَفَاوِزَ، وَلَيْسَ الْحَرِيصُ لِمَا قُدِّرَ لَهُ بِمُجَاوِزٍ، أَلَا وَإِنَّ بَذْلَ الِاسْتِطَاعَةِ وَاسْتِقْصَاءَ الْجِدِّ فِي الطَّاعَةِ أَوْلَى بِمَنْ يَرْكَبُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَالسَّعْيَ النَّجِيحَ فِي الْعَمَلِ الدَّائِرِ بَيْنَ حُقُوقِ اللهِ أَحَقُّ مِنْ لَعِبِ اللَّاعِبِ وَلَهْوِ اللَّاهِ، وَالْوُلُوعَ بِنَيْلِ الْمَفَازَةِ فِي الْأُخْرَى أَجْدَرُ مِنْ جَوْبِ الْمَفَاوِزِ وَأَحْرَى، كَأَنِّي بِجَنَازَتِكَ يُجْمَزُ بِهَا إِلَى بَعْضِ الْأَجْدَاثِ، وَبِأَهْلِ مِيرَاثِكَ هَجَرُوكَ بَعْدَ الثَّلَاثِ، وَشَغَلَهُمْ عَنْكَ تَنَاجُزُهُمْ عَلَى الْمِيرَاثِ، وَغَادَرُوكَ وَأَنْتَ مُعَفَّرٌ طَرِيحٌ، فَقَدْ ضَمَّكَ لَحْدٌ وَضَرِيحٌ، رَهِينَ هَلَكَةٍ مُبْسَلًا فِي يَدِ الْمُرْتَهِنِ، أَسِيرَ مِحْنَةٍ مُبْلِسًا مِنْ إِطْلَاقِ الْمُمْتَحِنِ. لَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَجْرِ الْعَشِيرَةِ وَجَفْوَةِ الْعَشِيرِ وَوَدَاعِ الْمُسْتَشِيرِ مِنْ جُلَسَائِكَ وَالْمُشِيرِ إِلَّا عَمَلُكَ الَّذِي لَزِمَكَ فِي حَيَاتِكَ لُزُومَ صَحْبِكَ، وَيَسْتَبْقِي صُحْبَتَكَ بَعْدَ قَضَاءِ نَحْبِكَ، فَيَصْحَبُكَ عَلَى التَّخْتِ مَغْسُولًا، وَيَأْلَفُكَ عَلَى النَّعْشِ مَحْمُولًا، وَيُرَافِقُكَ مَوْضُوعًا عَلَى الْأَكْتَافِ فِي الْمُصَلَّى، وَيُحَالِفُكَ وَأَنْتَ فِي الْحُفْرَةِ مُدَلًّى، وَيُضَاجِعُكَ غَيْرَ هَائِبٍ مِنْ مَضْجَعِكَ الْخَرِبِ، وَيُعَانِقُكَ غَيْرَ مُسْتَوْحِشٍ مِنْ خَدِّكَ التَّرِبِ، وَلَا يُفَارِقُكَ مَا دُمْتَ فِي غِمَارِ الْأَمْوَاتِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ وَمُؤَلَّفَاتُكَ أَشْتَاتٌ، وَعِظَامُكَ نَاخِرَةٌ وَرُفَاتٌ، فَإِذَا رَاعَتْكَ نَفْخَةُ النَّشْرِ، وَفَاجَأَتْكَ أَهْوَالُ الْحَشْرِ، وَفَرَّ مِنْكَ أَبُوكَ وَأُمُّكَ وَأَخُوكَ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مُهِمٌّ يَعْنِيهِ، وَشَأْنٌ حِينَئِذٍ يُغْنِيهِ؛ وَجَدْتَ عَمَلَكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَغْبَرِ، وَسَاعَةِ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، أَتْبَعَ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ، وَأَلْزَمَ مِنْ شَعْرَاتِ قَصِّكَ، يَفِدُ مَعَكَ أَيْنَمَا تَفِدُ، وَيَرِدُ حَيْثُمَا تَرِدُ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَدُلَّكَ عَلَى فَوْزٍ مُبِينٍ، وَإِمَّا أَنْ يَدُعَّكَ إِلَى عَذَابٍ مُهِينٍ، فَاجْهَدْ نَفْسَكَ فِعْلَ كَادِحٍ غَيْرَ مَلُولٍ، وَارْكَبْ كُلَّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ،

وَلَعَلَّكَ تَسْتَصْحِبُ مِنْ هَذَا الْقَرِينِ الْمُوَاصِلِ الْمُلَازِمِ، وَهَذَا الرَّفِيقِ الْمُخَاصِرِ الْمُحَازِمِ صَاحِبَ صِدْقٍ يُؤْنِسُكَ فِي مَوَاقِيتِ وَحْدَتِكَ وَوَحْشَتِكَ، وَيُلْقِي عَلَيْكَ السَّكِينَةَ فِي مَقَامَاتِ حِيرَتِكَ وَدَهْشَتِكَ، وَيُمَهِّدُ لَكَ فِي دَارِ السَّلَامِ الْمِهَادَ الْأَوْثَرَ، وَيَرِدُ بِكَ سَلْسَبِيلًا وَالْكَوْثَرَ».

****

مبحث
التحليلُ البلاغيُّ للمقامةِ

عناصر بناء النصِّ:

هذا النصُّ مكوَّنٌ من أكثرَ من عشْرِ جملٍ تنوَّعتْ بينَ الاسميَّة والفعليَّة، فالاسميَّةُ لتقرير معاني الوعظ والإرشاد وإثباتِها، والفعليَّة –وهي الغالبة– للتعبير عن الحركة، وإبراز الاستمرارية أو الحدوث في الزمن الحالي والمستقبلي، وكلُّ جملةٍ من هذه الجملِ تبعثْها قيودٌ زادت من فائدتِها، (وتقويتِها لدى السَّامعِ؛ لما هو معروفٌ من أنَّ الحكمَ إذا زادت قيودُهُ ازداد إيضاحًا وتخصيصًا، فتكون فائدتُهُ أتمَّ وأكملَ، ولا فرقَ في ذلك بين تقييدِ المسندِ إليه والمسندِ، ولا بينَ التقييدِ بتابعٍ ومفعولٍ ونحو ذلك)[٢٠].

وقد زخر نصُّ المقامةِ بالوصفِ الذي يزيدُ في التمييزِ والتوضيحِ والكشفِ عن المرادِ، وزخر كذلك بالإضافةِ؛ لزيادةِ التخصيصِ المستلزمِ للفائدةِ، وكان للحالِ جملةً ومفردةً أثرٌ بالغٌ في بناءِ النصِّ؛ حيثُ إنَّ الحالَ تزيدُ في إيضاحِ المعنى وتربيةِ الفائدة، فالنصُّ إذًا يتميزُ بعناصرِ بناءٍ قويةٍ تمزجُ بين الفكرة الواضحةِ والأسلوبِ البلاغيِّ المُحْكَمِ؛ مما يجعلُهُ مميزًا في أدب المواعظ، حيثُ يجمع النصُّ بين الوعظِ الجادِّ والجمالِ الفني والأسلوبِ الرَّصين؛ ليؤدي رسالتَه بجودةٍ عاليةٍ حول فكرةِ الموعظةِ والإرشادِ بضرورةِ التوجُّه إلى العمل الصالحِ، والتخلي عن اللهوِ واللعِبِ بأمورِ الدُّنيا الفانيةِ، مع التذكيرِ بحتميةِ الموتِ وأهوالِ ما بعدَهُ، والاستعدادِ ليومِ الحسابِ، والزَّمخشريُّ الكاتبُ يوظِّفُ لغةً بلاغيَّةً مؤثرةً لجعلِ الفكرةِ عميقةَ الأثرِ في المتلقِّين.

****

استهلالُ المقامة:

يقولُ الإمامُ الزمخشريُّ:

«يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَتَّامَ تَلْهُو وَتَلْعَبُ وَغُرَابُ الْبَيْنِ فَوْقَكَ يَنْعَبُ، وَإِلَامَ تَرُوحُ فِي الْتِمَاسِ الْغِنَى وَتَغْدُو، وَسَائِقُ الرَّدَى وَرَاءَكَ يَحْدُو، وَفِيمَ تَجُوبُ لِارْتِيَادِ الْمَالِ الْأَوْدِيَةَ وَالْمَفَاوِزَ، وَلَيْسَ الْحَرِيصُ لِمَا قُدِّرَ لَهُ بِمُجَاوِزٍ، أَلَا وَإِنَّ بَذْلَ الِاسْتِطَاعَةِ وَاسْتِقْصَاءَ

الْجِدِّ فِي الطَّاعَةِ أَوْلَى بِمَنْ يَرْكَبُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَالسَّعْيَ النَّجِيحَ فِي الْعَمَلِ الدَّائِرِ بَيْنَ حُقُوقِ اللهِ أَحَقُّ مِنْ لَعِبِ اللَّاعِبِ وَلَهْوِ اللَّاهِ، وَالْوُلُوعَ بِنَيْلِ الْمَفَازَةِ فِي الْأُخْرَى أَجْدَرُ مِنْ جَوْبِ الْمَفَاوِزِ وَأَحْرَى».

افتتحَ جارُ اللهِ الزمخشريُّ مقامَتَهُ هذه بالتجريدِ، حيثُ جعَلَ من ذاتِهِ شخصًا يُوجِّهُ إليهِ الخطابَ، وهذا التجريدُ أتاح له –على امتدادِ المقامةِ– الاعتمادَ على ضمير الخطابِ (إنكارًا، وتقريعًا، وتوبيخًا، وعتابًا، ووعظًا، وترحُّمًا)؛ إذ الغرضُ من التجريدِ –كما ذكر ابنُ الأثيرِ– «طلب التوسع في الكلام، فإنه إذا كان ظاهرُهُ خطابًا لغيركَ وباطنُهُ خطابًا لنفسكَ فإنَّ ذلك من باب التوسعِ»[٢١]، كما أنَّ التجريدَ أتاحَ للزَّمخشريِّ مُخاطبةَ الجُمهُورِ مُستتِرًا بخطابِ ذاتِهِ، ومُناديًا إيَّاها بأداةِ النداءِ (يا) التي تُستعمَلُ لنداءِ البعيدِ، وليسَ أقربَ إلى الشخصِ من ذاتِهِ، فيُنادي نفسَهُ لمكانتِهِ في العلمِ ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [سورة فاطر: ٣٥]، كأنَّهُ يُريدُ تنبيهَها ولوْمَها ووعظَها وإيقاظَها من غفْوتِها وكبْوتِها، ويُجْبِرُها على التَّواضُعِ، وينبّهُ نفسَهُ بنفسِهِ؛ تطبيقًا لمعنى الخشيةِ التي ينبغي أنْ يكونَ عليها العالمُ باللهِ، فناداها بنداءِ البعيدِ، حيثُ نزَّلَ القريبَ منزلةَ البعيدِ للغرضِ السابقِ، واستهلالُه بهذا النداء عملَ على جذبِ المتلقِّي، وهيَّأهُ للدخولِ في محتوى النصِّ، دخولَ المتأمِّلِ المُنْتَبِه.

وكنيتُه (**أَبَا الْقَاسِمِ**) أسلوبٌ نهجهُ في افتتاحِ جُلِّ مقاماتِهِ إلا مقامةً واحدةً؛ وذلك (تبرُّكًا وتفاؤلًا بموافقة كُنيتِهِ كُنيةَ رسولِ اللهِ – ﷺ–، إذ كانت كُنيتُهُ أبا القاسم، وأيضًا ليزجرَ نفسَهُ عن المُخالفاتِ؛ إذ لا ينبغي لمثلِ مَنْ تكنَّى بهذه الكُنية الشريفةِ أنْ يقع فيما يُغْضِبُ أبا القاسم– ﷺ–)[٢٢].

فيقولُ لنفسِهِ: إلى متى تنشغِلُ باللهوِ واللعبِ، وغرابُ البَينِ فوقَكَ ينعَبُ؟ واللهوُ: هو اللعبُ الذي ليسَ منهُ أيُّ نفعٍ، ولا يكونُ إلَّا من الكبيرِ المُكلَّفِ بالتكاليفِ الشرعيةِ، واللعبُ: قد يكونُ منهُ نفعٌ أو عدمُ نفعٍ ويكونُ من الصغيرِ والكبيرِ، والغرابُ: هو هذا الطائرُ الأبقعُ الذي فيهِ سوادٌ وبياضٌ، ويُضرَبُ بهِ المثلُ في الشؤمِ، فيُقالُ: أشأمُ من غرابِ البَينِ، والبَينُ:

الفِراقُ، يَنعَبُ، أي يَصيحُ بصوتٍ عالٍ، يُريدُ أن يقولَ: إنَّكَ قدِ انشغلتَ باللهوِ واللعبِ عنِ الجِدِّ والاجتِهادِ في الطاعةِ والعبادةِ، معَ أنَّ رسولَ الفِراقِ والرحيلِ يَجتهِدُ في طلبِكَ، ويَسعَى نحوَكَ.

وتكثيف استخدامِ الأسلُوبِ الإنشائيّ من خلالِ النداءِ والاستفهامِ، وكذلك استخدامُ الجملِ الحاليَّة، كلُّ هذا يعكسُ انفِعالَ نفسِهِ، وثورَتَهُ على أخطائِهِ.

والاستفهام في قولِهِ: (**حَتَّامَ**[٢٣] **تَلْهُو وَتَلْعَبُ**) للتوبيخِ والإنكارِ والاستغرابِ، فهو يُنكرُ من نفسِهِ أنْ يكونَ متباطئًا في اللهوِ واللعبِ، وهذا الاستفهامُ من شأنِهِ إثارةُ مشاعِرِ المتلقّي، فيدعوهُ إلى التفكير والتأمُّلِ في حقيقةِ أفعالِهِ ودوافِعِها، ويدعوه إلى الإصلاحِ لذاتِهِ وأخلاقِهِ.

وفي قولِهِ: (**غُرَابُ الْبَيْنِ**[٢٤] **فَوْقَكَ يَنْعَبُ**) كنايةٌ عن قُربِ الموتِ، والتعبير بالفعلِ المضارعِ (**يَنْعَبُ**) تصويرٌ بالصَّوتِ أعطى له معنى التنبيه على أنَّ شبح الموتِ يستمرُّ في طلبِهِ لا يفارقُهُ.

وتقديم الظرف (**فَوْقَك**) تحذيرٌ للمخاطبِ المُجرَّدِ من نفسِهِ بإحاطةِ الموتِ لهُ وتمكُّنِهِ منهُ وملاحقته إياه، وكأنَّ الموتَ فوقَ رأسِهِ يكادُ يسقُطُ عليْهِ.

ويُلحظُ هنا الجناسُ السجعيّ بينَ (تلعبُ) و(ينعَبُ)، وتَساوي الجملتَينِ وتناسُقُهما، وهذا سِمةُ أُسلوبِ المقاماتِ الغالِبِ.

(وَإِلَامَ تَرُوحُ فِي الْتِمَاسِ الْغِنَى وَتَغْدُو، وَسَائِقُ الرَّدَى وَرَاءَكَ يَحْدُو)

ثمَّ يقولُ: وإلى متى تُشغِلُ نهارَكَ وليلكَ في طلبِ الغِنى والتزوُّدِ منَ المادِّيَّاتِ، معَ أنَّ قائدَ الهلاكِ والفناءِ يَحدُو خلفَكَ، أي يَطلبُكَ طلبًا سريعًا حثيثًا. وهذا كِنايةٌ عن الزمنِ.

واستخدامُ الأفعالِ المُضارِعةِ (**تَرُوحُ ، وَتَغْدُو، يَحْدُو**) فيه تصويرٌ بالحركةِ، أي بحركةِ الرَّواحِ والغدوِّ والسَّعيِ مطلقًا، فاستعانَ بالحركةِ بينَ (**تَرُوحُ**) وهوَ السعيُ آخرَ النهارِ ، وَ(**تَغْدُو**) وهوَ السعيُ في أوَّلِ النَّهارِ، وما بينهما من طباقٍ، مع تضمُّنِهِما معنى الزمنِ، وصوَّر حركةَ الزَّمنِ بسَوْقِهِ للموتِ نحوه (**وَسَائِقُ الرَّدَى وَرَاءَكَ يَحْدُو**)، مع دلالة ذلك واشتمالِهِ على معنى الزمن والحركةِ أيضًا.

والاستفهام بـ «إِلَامَ» الغائيَّة للتوبيخ والإنكار، فالقائل يُكرّرُ على نفسِهِ الاستفهامَ بوسيلةٍ أخرى، كأنَّهُ إنكارٌ وتوبيخٌ.

وقد تعانقَ كلٌّ من الاستفهامِ والحالِ في الإقناعِ والتشويقِ ورسْمِ المشاهِدِ الحيَّةِ، والرَّبطِ بينَ الأفعالِ ونتائِجِها المُترتّبةِ عليها؛ فصيغةُ الاستفهامِ «حَتَّامَ ، إِلَامَ» تشيرُ إلى الامتداد الزَّمنيّ إلى المُستقبَلِ بالأفعالِ المُستقبحةِ المُنكَرَةِ الموبَّخِ عليها، والجملُ الحاليَّةُ تدلُّ على المقارنةِ الزمنيَّة للقولِ؛ ممَّا يُنشئُ المُفارقةَ بينَ الحالِ والواقعِ وطولِ أملِ الإنسانِ فيما لا طائلَ من ورائِهِ، فيجعلُهُ أعجلَ إلى قطعِ ما يقعُ فيهِ من أخطاءٍ ومقاطعتِهِ، وأسرعَ إلى الالتفاتِ للحالِ المُخِيفةِ التي وصفها؛ لأنَّها أقربُ إليهِ.

وعبر بـ(الْتِمَاسِ) ولم يقل (طلبِ الغِنَى) مثلًا؛ مبالغةً في الطلبِ مرَّةً بعدَ أخرى، وذُكِرَ "أنَّ الِالْتِمَاسَ طَلَبٌ بِاللَّمْسِ، ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ طَلَبٍ الْتِمَاسًا مَجَازًا"[٢٥].

وسائق الردَّى فيه تشبيهٌ لحال الوقتِ كرسول الموتِ الذي يطلبُ الإنسانَ ويتتبَّعه بحادي الرَّكبِ الذي يتتبَّع القافلةَ حتَّى لا تتفلَّتَ منه ويتوهَ منها في الصحراء، ووجه الشَّبه شدةُ الانتباه والتتبُّع وسرعة اللحاق بالهدفِ.

وتقديم الظرف (وَرَاءَكَ) فيه تنبيهٌ وتذكيرٌ لنفسه بالموت الذي يلاحقُهُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

والتعريف بالإضافة في قوله: (وَسَائِقُ الرَّدَى) فيه تخصيصٌ وضمٌّ والتزامٌ أي التزام الموتِ بتتبُّع الإنسانِ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

والسجعُ بينَ (تَغْدُو، يَحْدُو)، واختيارُ الأفعالِ المضارعةِ التي تَدُلُّ على التجدُّدِ واستحضار الصورة، وتدلُّ على استمرار الحركة اليوميَّة للإنسانِ، الذي ينشغلُ في طلبِ الغِنَى والتماسِهِ دون وعيٍ بِقِصَرِ مدةِ الزمنِ الذي يعيشُهُ، وكذلك تدلُّ على الحركة السريعة للموتِ الذي يحدُو وراءَ الإنسانِ ويتتبعُهُ دونَ توقُّفٍ؛ مما يُشْعِرُ بالرهبةِ والخوفِ.

ثمَّ يقول الإمامُ الزمخشريُّ، مُكرّرًا على نفسِهِ الاستفهامَ:

«وَفِيمَ تَجُوبُ لِارْتِيَادِ الْمَالِ الْأَوْدِيَةَ[٢٦] وَالْمَفَاوِزَ، وَلَيْسَ الْحَرِيصُ لِمَا قُدِّرَ لَهُ بِمُجَاوِزٍ، أَلَا وَإِنَّ بَذْلَ الِاسْتِطَاعَةِ وَاسْتِقْصَاءَ الْجِدِّ فِي الطَّاعَةِ أَوْلَى بِمَنْ يَرْكَبُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ بَعْدَ سَاعَةٍ، وَالسَّعْيَ النَّجِيحَ فِي الْعَمَلِ الدَّائِرِ بَيْنَ حُقُوقِ اللهِ أَحَقُّ مِنْ لَعِبِ اللَّاعِبِ وَلَهْوِ اللَّاهِ، وَالْوُلُوعَ بِنَيْلِ الْمَفَازَةِ فِي الْأُخْرَى أَجْدَرُ مِنْ جَوْبِ الْمَفَاوِزِ وَأَحْرَى».

يقولُ: وفي أيّ شيءٍ تجوبُ، أي تقطعُ الأميالَ الكثيرةَ، وتسيرُ المساحاتِ الواسعةَ للحصولِ على الأموالِ من السهلِ والجبلِ ومن البدوِ والحضرِ، حيثُ تقطعُ الأوديةَ، وهي جمعُ وَادٍ، والوادي هو المنخفضُ بينَ الهضابِ والجبالِ الذي يسيلُ فيهِ الماءُ من تلكَ الأماكنِ المرتفعةِ، و"المفاوزُ جمعُ مفازةٍ، وهي الصحراءُ، وسُمِّيتْ مفازةً؛ تفاؤلًا لمن يسيرُ فيها بالفوزِ من الهلاكِ"[٢٧]، فهو يُجهِدُ نفسَهُ بالسعيِ في الأرضِ غيرَ مُفرّقٍ بينَ سهولِها وجبالِها للحصولِ على عرضِ الدنيا الزائلِ والمنقضِي، ثمَّ يسوقُ حكمةً بليغةً وحقيقةً إيمانيَّةً، وهي أنَّ الإنسانَ الحريصَ الذي يحرصُ على أمورِ الدنيا لا يُحصِّلُ إلا ما قدَّرَ اللهُ تعالى لهُ من المالِ أو الغنى، وكأنَّهُ يُشيرُ بذلكَ إلى قولِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ[٢٨] –كرَّمَ اللهُ وجهَهُ– [من الطويل]:

إِذَا جَادَتْ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَجُدْ بِهَا ∴ عَلَى النَّاسِ طُـرًّا إِنَّهَا تَتَقَلَّبُ

فَلَا الْجُودُ يُفْنِيهَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ ∴ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِيهَا إِذَا هِيَ تَذْهَبُ

والاستفهام في قولِهِ: (وَفِيمَ تَجُوبُ لِارْتِيَادِ[٢٩] الْمَالِ الْأَوْدِيَةَ وَالْمَفَاوِزَ) للتحقيرِ من المطلوب وهو المال، وعبَّر بـ(الْأَوْدِيَةَ وَالْمَفَاوِزَ) توبيخًا لنفسِهِ على اختيارِهِ أصعبَ الطرقِ والمسالكِ التي توصّله إلى المال، ولا يَطلب بهذه المسالكِ الآخرةَ.

وعبَّر بجملةِ الحالِ المنفيّةِ (وَلَيْسَ الْحَرِيصُ لِمَا قُدِّرَ لَهُ بِمُجَاوِزٍ)؛ لتقرير حقيقةٍ إيمانيَّةٍ، وهي الإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ، والجملةُ الحاليَّةُ كذلك توبيخٌ للحرصِ على غير المكتوبِ أو ما لا يُرجَى تحصيلُهُ، وسوْقُها هنا لقطْع الأمل الزائدِ في الفوزِ بما ليس مُقدَّرًا.

"والحالُ خبرٌ في الحقيقة، مِنْ حيثُ إنك تُثْبتُ بها المعنى لذي الحالِ كما ثبت بخبر المبتدأ"[٣٠].

وبعدما استعانَ الزَّمخشريُّ بالحركةِ والزمن، أتبع ذلك بالحديث عن الحركةِ والتَّطوافِ، وتصويرها كأنَّهُ يطوف في العالَمِ ما بينَ أخضرِهِ ويابِسِهِ؛ طلبًا للدُّنيا وما فيها، مستعينًا بالطباقِ بينَ (**الْأَوْدِيَةَ وَالْمَفَاوِزَ**) وما يبرزُهُ من معاني المشقَّة والجهد في جلبِ المالِ والسَّعْيِ وراءَهُ دون جدوى، وكذلك ما يحملُهُ الفعلُ المُضارعُ من معنى التجدُّد لتصوير دأبِ الإنسانِ في الحركةِ والسَّعْيِ.

وتسويته بين الجملتين، وكل هذا يعطي إيضاحًا وتقويةً للمعنى، ويعطي جرسًا موسيقيًّا متناغمًا متناسقًا تعشقه الآذان وتهواه الأسماع.

وقوله: (**بَعْدَ سَاعَةٍ**) كنايةٌ عن قرب المدة وقصرِها، و(**الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ**) تصويرٌ يُرادُ به التذكير بحالة الموت وقت أن يفقدَ الإنسانُ حيلتَهُ في طلب الدنيا أو الآخرةِ على حدٍّ سواءٍ، والتعبير بالمضارع في قوله: (**يَرْكَبُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ بَعْدَ سَاعَةٍ**) فيه استحضارٌ لصورة الموت المُخوِّفةِ التي تبعث الرهبةَ.

وقوله: (**النَّجِيحَ**) صفةٌ مُشبَّهةٌ أراد بها قوة التأثير في وصف المعنى، وكأنَّه يطلب به الإخلاص، وحثَّ النفسِ عليه، وهذهِ الصفةُ مُخصِّصةٌ للسَّعْيِ الذي يُريدُهُ ويقصدُهُ، وهو (الدَّائرُ بين حقوقِ اللهِ)، وليسَ السعي في التماسِ الغِنى.

ثم يقول: أولى لكِ أيَّتُها النفسُ أن تنشغلي قدرَ جدِّكِ وجهدِكِ في طاعة الله عزَّ وجلَّ قبل أن يصيبَكِ الأجل المحتوم المكتوب على كل نفس تتنفس وهو الموت، وتركبي الآلة الحدباء الصماء التي يوضع عليها الأموات (النعش) بعد (ساعة) أي: مدة يسيرة صغيرة، وكأنِّي به يُشير إلى قول كعب بن زهير[٣١]: [من البسيط]

كلُّ ابنِ أُنْثى وإنْ طالَتْ سَلامَتُهُ ∴ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

إذَا حَمَلْتَ إلَى الْقُبُـــورِ جَنَازَةً ∴ فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَهَا مَحْمُـــولُ

وقوله: (**أَلَا وَإِنَّ بَذْلَ الِاسْتِطَاعَةِ وَاسْتِقْصَاءَ الْجِدِّ فِي الطَّاعَةِ أَوْلَى بِمَنْ يَرْكَبُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ بَعْدَ سَاعَةٍ**) هذا كلامٌ مردودٌ بهِ على ما سبقَ من إنكارٍ وتوبيخٍ في قولهِ: (**يَا أَبَا**

الْقَاسِمِ حَتَّامَ تَلْهُو وَتَلْعَبُ وَغُرَابُ الْبَيْنِ فَوْقَكَ يَنْعَبُ، وَإِلَامَ تَرُوحُ فِي الْتِمَاسِ الْغِنَى وَتَغْدُو، وَسَائِقُ الرَّدَى وَرَاءَكَ يَحْدُو، وَفِيمَ تَجُوبُ لِارْتِيَادِ الْمَالِ الْأَوْدِيَةَ وَالْمَفَاوِزِ، وَلَيْسَ الْحَرِيصُ لِمَا قُدِّرَ لَهُ بِمُجَاوِزٍ)، وقد رتَّبها الزَّمخشريُّ على النحوِ الآتي:

فقولُهُ:(**أَلَا وَإِنَّ بَذْلَ الِاسْتِطَاعَةِ وَاسْتِقْصَاءَ الْجِدِّ فِي الطَّاعَةِ أَوْلَى بِمَنْ يَرْكَبُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ بَعْدَ سَاعَةٍ**) ردٌّ على الجملةِ الأولى (**حَتَّامَ تَلْهُو وَتَلْعَبُ وَغُرَابُ الْبَيْنِ فَوْقَكَ يَنْعَبُ**).

وقولهُ: (**وَالسَّعْيَ النَّجِيحَ فِي الْعَمَلِ الدَّائِرِ بَيْنَ حُقُوقِ اللهِ أَحَقُّ مِنْ لَعِبِ اللَّاعِبِ وَلَهْوِ اللَّاهِ، وَالْوُلُوعَ بِنَيْلِ الْمَفَازَةِ فِي الْأُخْرَى أَجْدَرُ مِنْ جَوْبِ الْمَفَاوِزِ وَأَحْرَى**) ردٌّ على الجملةِ الثانية (**وَإِلَامَ تَرُوحُ فِي الْتِمَاسِ الْغِنَى وَتَغْدُو، وَسَائِقُ الرَّدَى وَرَاءَكَ يَحْدُو**).

وقولهُ: (**وَالْوُلُوعَ بِنَيْلِ الْمَفَازَةِ فِي الْأُخْرَى أَجْدَرُ مِنْ جَوْبِ الْمَفَاوِزِ وَأَحْرَى**) ردٌّ على الجملةِ الثالثة (**وَفِيمَ تَجُوبُ لِارْتِيَادِ الْمَالِ الْأَوْدِيَةَ وَالْمَفَاوِزِ، وَلَيْسَ الْحَرِيصُ لِمَا قُدِّرَ لَهُ بِمُجَاوِزٍ**).

وهنا اشتراكٌ في الحقولِ الدلاليَّة مطلقًا، فهذه الجملُ مقابلةٌ اعتباريَّةٌ، الرُّدودُ في مقابلةِ الاستفهامات الإنكاريَّة التوبيخيَّة، وهذه المقابلةُ تُظهرُ الفرقَ بينَ حالَيْنِ من أجلِ العبرةِ والعظةِ، حالِ الإنسانِ الذي يسعى للمفاسِدِ والمهالكِ، وحالِهِ إذا سعى لصلاحِ نفسِهِ وتهذيبِها.

والتعقيب بالتنبيه بـ (أَلَا) لتذكيرِ نفسِهِ بما يعلمُ، وقد انتقل من الاستفهام إلى البيانِ؛ لتنبيهِ العقلِ إلى ما يأتي من كلامٍ، فيجذبه إلى المعنى بمدخلٍ عقليٍّ، فبعد أنِ استنفرَ نفسَهُ ووبَّخها بالأسئلةِ، ذهبَ إلى ما يُسكِّنُ العقلَ ويثبتُ صدق هذا الاستفهام، وأنَّه في محلِّهِ.

وعبَّر بالتنبيه مقترنًا بالتوكيد(**أَلَا وَإِنَّ**) لتثبيتِ المعنى وتأكيدِه، فالجدُّ والاستقصاءُ في الطاعة ثابتٌ مع اختلاف تغيير قلبِ الإنسانِ وميلِهِ إلى الدنيا أحيانًا، فمهما اتَّجه الإنسانُ إلى طلب الدنيا ونيلِها، ثمَّ يرجع إلى نفسه يعلمُ علمَ اليقين أنَّ الجدَّ والاستقصاء في طلب الطاعةِ هو الأنفعُ له والأجدرُ به.

وقوله: (**بِمَنْ يَرْكَبُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ بَعْدَ سَاعَةٍ**) كنايةٌ عن الموتِ.

ويُلحظ أيضًا أنه لجأ إلى نوعٍ من أنواع الموسيقى الداخلية والخارجية من خلال التناسق والتناغم بين العبارات، واستعمال السجع والجناس بين الجمل مثل كلمتي: (**الطَّاعَةْ، سَاعَةْ**).

ثم يقول الإمام الزمخشري:

«كَأَنِّي بِجَنَازَتِكَ يُجْمَزُ بِهَا إِلَى بَعْضِ الْأَجْدَاثِ، وَبِأَهْلِ مِيرَاثِكَ هَجَرُوكَ بَعْدَ الثَّلَاثِ، وَشَغَلَهُمْ عَنْكَ تَنَاجُزُهُمْ عَلَى الْمِيرَاثِ، وَغَادَرُوكَ وَأَنْتَ مُعَفَّرٌ طَرِيحٌ، فَقَدْ ضَمَّكَ لَحْدٌ وَضَرِيحٌ، رَهِينَ هَلَكَةٍ مُبْسَلًا فِي يَدِ الْمُرْتَهِنِ، أَسِيرَ مِحْنَةٍ مُبْلِسًا مِنْ إِطْلَاقِ الْمُمْتَحِنِ».

ويَقُولُ لِنَفْسِهِ: كَأَنَّهُ يُعَايِشُ تِلْكَ الأَوْقَاتِ الَّتِي يُسْرِعُ فِيهَا النَّاسُ بِمَوْكِبِ جَنَازَتِهِ لِيُودِعُوهُ القَبْرَ، وَالأَجْدَاثُ جَمْعُ جدثٍ وَهُوَ القَبْرُ، قَالَ تَعَالَى **يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ** [المعارج: ٤٣]، ثُمَّ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ المُحَدَّدَةِ لِلاحْتِدَادِ عَلَى المَيِّتِ، هَجَرَهُ الأَهْلُ بِنِسْيَانِهِ وَانْشَغَلُوا بِمِيرَاثِهِ الَّذِي تَرَكَهُ، وَتَرَكُوا فَقِيدَهُمْ فِي لَحْدِهِ مُعَفَّرًا بِالْتُرَابِ، مَطْرُوحًا عَلَيْهِ، مَحْبُوسًا بعملِهِ، ومرهونًا به، فليس مَعَهُ إِلَّا عَمَلُهُ الَّذِي لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ إِلَى وَقْتٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِإِطْلَاقِ سَرَاحِهِ، وَكَأَنَّهُ أَسِيرُ مِحْنَةٍ قَدْ تَحَيَّرَ فِي كيفيَّةِ الخروجِ من مِحنتِهِ.

وبالتَّأمُّل في هاتين الجملتين نجد أنَّ الزَّمخشريَّ زَاوَجَ بينهما؛ ليُصوِّرَ بهما مشهديْن متتابعيْن؛ الأول مشهد جنازة الميّت، والآخر ردُّ فعل أهلِهِ بعد وفاته، وازدواجُ الجملِ يقوّي الصلةَ بينَها، ويزيدُ من تماسُكِها، (فالازدواجُ تنسيقٌ للمعاني قبل أن يكونَ تنضيدًا للألفاظِ، بحيث يشعر القارئ أنَّه يدورُ في مجالٍ لفظيٍّ يتعمَّدُ فيه القائلُ إظهار البراعةِ والإبداعِ)[٣٢].

وكأنَّ للتقريب[٣٣]، يُرادُ به تصوير سرعة مرور جنازته، وتذكير المتلقّي بسرعةِ انتهاءِ الحياةِ وزوالِها وحتميّةِ الموتِ؛ لتكونَ العبرةُ لنفسِهِ أبلغَ.

وتكرار حرف الجيم في الكلمات (**بِجَنَازَتِكَ- يُجْمَزُ – الْأَجْدَاثِ- هَجَرُوكَ- تَنَاجُزُهُمْ**) يُساعدُ على التنبيهِ وجذبِ الانتباهِ بقوَّةٍ؛ لما يتميَّزُ به صوت الجيمِ من كونِهِ شديدًا، "والشِّدَّةُ أن يُحصَرَ صوتُ الحرفِ في مخرجِهِ فلا يجري، والرخاوةُ بخلافِها، ويُتَعَرَّفُ تباينُهما بأن تقفَ على

الجيمِ والشينِ فتقولَ الحجّ والطشّ، فإنَّكَ تجدُ صوتَ الجيمِ راكدًا محصورًا لا تقدرُ على مَدِّهِ"(٣٤).

والجيم(صوتُها الانفجاريُّ يُوحِي بالقساوةِ والصَّلابةِ والحرارةِ والخُشُونةِ كأحاسيسَ لمسيَّةٍ، وبما يدلُّ على أصواتٍ مزيجةٍ من الحدَّةِ والانفجارِ كأحاسيسَ سمعيَّةٍ)(٣٥).

والتعريف بالإضافة في قوله: (**وَبِأَهْلِ مِيرَاثِكَ**) للاختصاصِ، وتدلُّ دلالةً واضحةً على تجرُّدِ الميّتِ من كلِّ شيءٍ، ونقل ملكيَّتِهِ لغيرِهِ.

وفي هذه الإضافةِ أيضًا تصويرٌ لانقطاعِ الميّت عن كلِّ أسباب الدُّنيا من الناس والأموال، وعن كلِّ مادّيٍّ ومعنويٍّ.

ويقطع الكاتبُ بهذه الأفعال: (**هَجَرُوكَ، وَشَغَلَهُمْ عَنْكَ، وَغَادَرُوكَ**) عن نفسِهِ تعلُّقَهُ بأهلِهِ وأحبابِهِ، ويُذكِّر نفسَهُ بما لا بُدَّ وأنَّهُ سيكونُ منهم بعدَ المماتِ؛ ليصرفَ نفسَهُ من هذا التعلُّق بالأهل والأحبابِ إلى ما هو أسمى وأنبل، ويُبيّنُ بهذه الأفعال (الهجر والانشغال والمغادرة) أنَّ الميت لم تعدْ له حيلةٌ ولا شفاعةٌ ولا صلةٌ عند الأهلِ والأحباب، ولا ينفعُهُ إلا عملُهُ الصَّالحُ.

والتصويرُ بجملةِ الحالِ في قوله: (**وَغَادَرُوكَ وَأَنْتَ مُعَفَّرٌ طَرِيحٌ**) يفيدُ تحقيرَ الحالِ التي يؤولُ إليها أيُّ إنسانٍ بعد الموتِ، وفيه تذكيرٌ للنفسِ بعدمِ التعلُّقِ بالدنيا وأهلِها.

وكذلك الأحوال المُفردة (**رَهِينَ هَلَكَةٍ – مُبْسَلًا فِي يَدِ الْمُرْتَهِنِ، أَسِيرَ مِحْنَةٍ– مُبْلِسًا مِنْ إِطْلَاقِ الْمُمْتَحِنِ**) صورةٌ مُخوِّفةٌ ومُرعبةٌ تبينُ عن حالِ الميتِ بعد مغادرة الأهلِ له، فقد وصفَ أوَّلًا حالَ أهلِ الدنيا، ثمَّ حال مَنْ دخلَ في الآخرة وهو الميّتُ؛ ليكون أبلغَ في إصلاحِ النفسِ وتهذيبِها.

واختيار الحروف والكلمات (**طَرِيحٌ– ضَمَّكَ– لَحْدٌ – وَضرِيحٌ– رَهِينَ –هَلَكَةٍ مُبْسَلًا – يَدِ الْمُرْتَهِنِ– أَسِيرَ –مِحْنَةٍ –مُبْلِسًا – الْمُمْتَحِنِ**) يوحي بالشدَّةِ والاستكراه، وسرعةِ التملُّق من شيءٍ غيرِ مرغوبٍ، كلُّ ذلك يؤكّده صوتُ الجيمِ، واستعماله بين الكلمات (**بِجَنَازَتِكَ– يُجْمَزُ – الْأَجْدَاثِ– هَجَرُوكَ– تَنَاجُزُهُمْ**).

وتضعيف الحرفِ في كلٍّ من (**مُعَفِّرٌ، ضَمَّكَ لَحْدٌ**) ينسجمُ مع معنى السياق، وهو الحديثُ عن حالِ الإنسانِ بعد مُغادرةِ الأهل لهُ وانصرافِهم عنه من دفنِهِ بعد موتِهِ، (فالحروف المُشدَّدة أشبهُ بحالِ المُتوتِّرِ الغاضِبِ المهمومِ)[٣٦].

وكلٌّ من (**طَرِيحٌ، رَهِينَ، أَسِيرَ**) (فَعِيلٌ) بمعنى (مَفْعُولٌ)، تصوِّرُ أنه بمُجرَّدِ دخولِ الإنسانِ القبرَ يصيرُ مفعولًا به، لا يَملِكُ من أمر نفسِهِ شيئًا، فقد صار أسيرَ عملِهِ في الدنيا، وصار مُسيَّرًا بعدَ أن كانَ مُخيَّرًا.

وقوله: (**فَقَدْ ضَمَّكَ لَحْدٌ وَضرِيحٌ**)[٣٧] يُعبِّرُ عن احتواء القبرِ للميِّتِ من كلِّ جانبٍ، فأصبحَ مأواهُ ومكانَه.

والتعبيرُ بالإضافة في قوله: (**رَهِينَ هَلَكَةٍ**) تعني أنَّ الميِّتَ أصبح على شفا العقابِ الأبديّ، لا يستطيعُ الدُّخولَ ولا الخروجَ، والتركيزُ على الأسماء في تصوير الحالِ؛ لأنَّها أثبتُ وأدومُ في إثباتِ حالِ الدنيا وحالِ الآخرة، وكأنَّ الكاتبَ يُطابِقُ بها حالَ الدنيا بحالِ الآخرة، ليرى نفسَه بينهما، فكأنَّه تذكيرٌ لنفسِهِ بما قد فاتها، ودعوةٌ لإدراكِ ما تبقَّى، وإصلاحِ ما يأتي.

واستعانَ في بيانِ الحال بالاستعارةِ بالرهنِ والأسر، فشبَّه نفسَه بالشيء الحِسيّ المرتهَنِ مقابلَ ما يعادله، فإنِ انفكَّ هذا انفكَّ ذاك، فشبَّه الإنسانَ بالشيء الذي يُؤخذُ وسيلةً للضغطِ، ويدُ المرتهَن يعني العمل نفسه، فشبَّه عملَهُ بالشخص المرتهَن، وشبَّه نفسَهُ بالشيءِ المرهُونِ، والاستعارةُ فيها تشبيه صورةِ قبضةِ عملِه بقبضةِ يدِ المرتهَن، حيث شبَّه صورتَه وهو مرهونٌ بعمله بصورة الشيء المحبوس في يد المرتهَن، ووجه الشبه إمساكُ شيءٍ ليس له قيمةٌ لإدراك شيءٍ له قيمةٌ.

وصيغة (فعِيل) مكسورةُ العينِ وممدودتُه في كلٍّ من (**طَرِيحٌ- ضرِيحٌ- رَهِينَ - أَسِيرَ**) توحي بالشعور بالكسرةِ والذِّلَّةِ والمهانةِ، فهو مُلقًى في اللَّحدِ لا حيلةَ له، وجوده ليس له وجودٌ، فالشيء الموجود والمعترفُ به في هذا الوقت هو العملُ، وكلُّ ما سواه لا قيمة له، حتَّى إنَّ الميِّتَ لا يستوي مع الأرض، بل هو في منزلةٍ أقلَّ منها ما لم يرفعه عملُهُ.

وقد لجأ في تصوير المعنى إلى الاستعارة، حيث شبَّه انتظارَ مقعدِهِ من الجنَّة أو النَّار بحالةِ الأسير الميئوسِ من إطلاقِ سراحِهِ.

وهذه الأحوالُ المُفردةُ (أَسِيرَ – رَهِينَ – مُبْسَلًا) أتى بها مفصولًا بعضُها عن بعضٍ، وليس معطوفًا بعضُها على بعضٍ، كأنَّ الأحوالَ كلَّها حالٌ واحدةٌ في اتِّحادِها على الميّتِ وقوَّتِها وشدَّتِها، وتساويها على صورةِ الميّت الواحدة التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، وإنَّما اختلفتْ عليهِ الأحوالُ وتبدَّلتْ أوصافُها؛ وذلك مبالغةً في زجرِهِ، ودعوةً إلى صلاحِهِ.

وحرفُ المدِّ (الياء) تمديدٌ لصورةِ المفعولِ في ذهنِهِ بصورةٍ ذميمةٍ أنْ يكونَ مفعولًا به بهذه الأحوالِ (أَسِيرَ – رَهِينَ – مُبْسَلًا)، فتمديد الأحوالِ بهذا الوزنِ (فَعِيلٌ) يدفعُ النَّفسَ إلى الاستكراهِ، أو تخيُّلِ هذهِ الأحوالِ، ويدعو إلى أن تنصلحَ نفْسُهُ.

يقول الإمام الزمخشري:

«لَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَجْرِ الْعَشِيرَةِ وَجَفْوَةِ الْعَشِيرِ وَوَدَاعِ الْمُسْتَشِيرِ مِنْ جُلَسَائِكَ وَالْمُشِيرِ إِلَّا عَمَلُكَ الَّذِي لَزِمَكَ فِي حَيَاتِكَ لُزُومَ صَحْبِكَ، وَيَسْتَبْقِي صُحْبَتَكَ بَعْدَ قَضَاءِ نَحْبِكَ، فَيَصْحَبُكَ عَلَى التَّخْتِ مَغْسُولًا، وَيَأْلَفُكَ عَلَى النَّعْشِ مَحْمُولًا، وَيُرَافِقُكَ مَوْضُوعًا عَلَى الْأَكْتَافِ فِي الْمُصَلَّى، وَيُحَالِفُكَ وَأَنْتَ فِي الْحُفْرَةِ مُدَلًّى»

ويقولُ لِنَفْسِهِ: إِنَّكَ بِالْمَوْتِ سَتَهْجُرُ العَشِيرَةَ الَّذِينَ نَشَأْتَ بَيْنَهُمْ، وَتَرَبَّيْتَ وَسَطَهُمْ، وَدَرَجْتَ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَعَشِيرَةُ الرَّجُلِ هُمْ أَهْلُهُ وَأَقْرَبَاؤُهُ الأَدْنُونَ، وَسَتَتْرُكُ المُسْتَشِيرَ الَّذِي كَانَ يَرْجِعُ إِلَيْكَ فِي أُمُورِهِ، فَيَرْجُو نَفْعَكَ، وَيَنْتَفِعُ بِرَأْيِكَ، وَسَتَهْجُرُ كَذَلِكَ مَنْ كُنتَ تَسْتَشِيرُهُ فِي أَوَامِرِكَ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِكَ، وَلَمْ يَتَبَقَّ لَكَ إِلَّا مَا عَمِلْتَ فِي دُنْيَاكَ؛ العَمَلُ الَّذِي كَانَ يُلازِمُكَ مُلازَمَةَ الصَّاحِبِ المُلازِمِ الَّذِي يُدَاوِمُ عَلَى الصُّحْبَةِ وَيَحْرِصُ عَلَيْهَا حَتَّى بَعْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِهِ، وَالنَّحْبُ هُوَ الأَجَلُ، وَيُصَاحِبُكَ عِندَ وضْعِكَ عَلَى التَّخْتِ، وَهِيَ الطَّاوِلَةُ الَّتِي يُغَسَّلُ عَلَيْهَا المَيْتُ، وَهَذَا الصَّاحِبُ يَظَلُّ مُرَافِقًا لَكَ وَمُلازِمًا، وَأَنْتَ مَحْمُولٌ عَلَى النَّعْشِ، وَهِيَ الآلَةُ الَّتِي يُحْمَلُ عَلَيْهَا الأَمْوَاتُ، ثُمَّ هُوَ يُؤَدِّي الصَّلَاةَ عَلَيْكَ مَعَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْكَ، عِندَمَا تَوُضَعُ فِي

المَصَلَّى لِتَأْدِيَةِ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ، ثُمَّ إِذَا تَدَلَّيْتَ، أَيْ أَنْزَلُوكَ إِلَى اللَّحْدِ أَيْضًا فَإِنَّهُ يَتَّبِعُكَ، وَلَا يُفَارِقُكَ.

جمعَ بالإضافةِ (**هَجْرِ الْعَشِيرَةِ، وَجَفْوَةِ الْعَشِيرِ، وَوَدَاعِ الْمُسْتَشِيرِ ... وَالْمُشِيرِ**) كلَّ صلةٍ بهجْرٍ، وكلَّ عِشْرةٍ بجفاءٍ، وكلَّ جلسةٍ بوداعٍ، وكأنَّه يقول: (كلُّ ما طالتْ صُحبتُهُ إلى انقطاعٍ، إلَّا العملُ)، فعبَّر بالإضافةِ؛ لإبرازِ النِّهايةِ المحتومةِ لكلِّ صلةٍ للإنسانِ بالدُّنيا، فنهايتها الزوالُ والفناءُ، ليقصر كلَّ ذلك على العمل، بطريق الاستثناء(**لَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَجْرِ الْعَشِيرَةِ وَجَفْوَةِ الْعَشِيرِ وَوَدَاعِ الْمُسْتَشِيرِ مِنْ جُلَسَائِكَ وَالْمُشِيرِ إِلَّا عَمَلُكَ الَّذِي** ...)، فعبَّر بالقصرِ بالنفي والاستثناء، فنفى البقاءَ عنْ كلِّ صلةٍ، وأثبتَ أمامها دوامَ صلةِ العملِ التي لا غيرها يدومُ في الدُّنيا والآخرةِ.

وعبَّر بالصلةِ (**الَّذِي لَزِمَكَ فِي حَيَاتِكَ لُزُومَ صَحْبِكَ، وَيَسْتَبْقِي صُحْبَتَكَ بَعْدَ قَضَاءِ نَحْبِكَ، فَيَصْحَبُكَ عَلَى التَّخْتِ مَغْسُولًا، وَيَأْلَفُكَ عَلَى النَّعْشِ مَحْمُولًا**.....)؛ ليستوفِيَ كلَّ الحالاتِ التي يُلازمُ فيها العملُ الإنسانَ بعدَ قضاء نحبِهِ.

وَيُلاحَظُ هُنَا أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ عِدَّةَ أَسَالِيبَ بَلَاغِيَّةٍ لِتَوْضِيحِ الْمَعْنَى وَإِبْرَازِهِ، مِنْ ذَٰلِكَ: كَثْرَةُ الْمُتَرَادِفَاتِ الَّتِي تَتَعَاضَدُ وَتَتَعَاوَنُ فِي كَشْفِ الْمَعْنَى كَمَا فِي "**هَجْرَ وَجَفْوَةٍ وَوِدَاعٍ**"، "**وَيَسْتَبْقِي صُحْبَتَكَ، وَيُصَاحِبُكَ، وَيَأْلَفُكَ، وَيُرَافِقُكَ، وَيُحَالِفُكَ**"، وهذا من مراعاةِ النظيرِ التي تجمعُ بينَ اللفظِ وما يناسبُهُ، لا بالتضادّ، فقد ضمَّ كلَّ كلمةٍ إلى أخرى مناسبةٍ لها، (وحُكمُ ذلك حُكْمُ العقدِ المنظومِ في اقتران كلِّ لؤلؤةٍ منه بأختِها المُشاكِلةِ لها)[٣٨].

واستخدامُ المُفاعلةِ بالإثباتِ والنفيِ (**يُصَاحِبُكَ، وَيَأْلَفُكَ، وَيُرَافِقُكَ، وَيُحَالِفُكَ، وَيُضَاجِعُكَ، وَيُعَانِقُكَ، وَلَا يُفَارِقُكَ**)؛ لبيان الحالةِ اللَّصيقةِ التي تجعلُ الإنسانَ وعملَهُ كالشيءِ الواحدِ لا ينفكُّ عنهُ، وذكر الأحوالَ كلَّها؛ لِيُثبتَ هذا الالتصاقَ واللزومَ.

وقولُهُ: (**فَيَصْحَبُكَ عَلَى التَّخْتِ مَغْسُولًا، وَيَأْلَفُكَ عَلَى النَّعْشِ مَحْمُولًا، وَيُرَافِقُكَ مَوْضُوعًا عَلَى الْأَكْتَافِ فِي الْمُصَلَّى، وَيُحَالِفُكَ وَأَنْتَ فِي الْحُفْرَةِ مُدَلًّى**) تفصيلٌ بعدَ

إجمالٍ، ووصف العمل بهذه الصور والاستعارات؛ لاستحضار صورة العمل وتكرارها على العينِ والقلبِ، مرَّةً بعد مرَّةٍ في العقل والقلب، لدوامِ التذكرةِ بها في كلِّ صورةٍ باستعارةٍ مختلفةٍ، فصوَّر من الإنسانِ عملَه بصورةٍ مكرَّرةٍ، فالإنسانُ هو عملُهُ، بل العملُ أبقى من صورةِ صاحبِهِ في الدنيا والآخرة، يغيب الإنسانُ ويبقى عملُهُ.

وَالسَّجْعُ الَّذِي فِي آخِرِ الْجُمَلِ مِنْ خِلَالِ حَرْفِ الرَّاءِ الَّذِي فِيهِ صِفَةُ الْجَهْرِ وَالتَّكْرِيرِ اللَّذَيْنِ يَدُلَّانِ عَلَى الْحَرَكَةِ الْكَثِيرَةِ الْمُضْطَرِبَةِ، وَحَرْفِ الْكَافِ الَّذِي فِيهِ قَرْعٌ لِلْأَسْمَاعِ وَالسُّكُوتِ حَيْثُ إِنَّهُ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ الْمَهْمُوسُ، وَصَوْتِ اللَّامِ الْجَهْرِيَّةِ وَصَوْتِ الْيَاءِ الْمَدِّيَّةِ الَّتِي تُصَوِّرُ الْحَدَثَ الْمَاثِلَ الْوَاقِعَ.

ووجود السجعِ عند الزَّمخشريّ ووفرةُ الوزنِ في هذه المقامةِ ليس لِحُسنِ اللفظِ ولا لجمالِ البيانِ؛ لأنَّ المقامَ وعظٌ للنفسِ، ففيهِ تجرُّدٌ من كلِّ هذهِ الأشياءِ وهي محسّناتُ اللفظِ والمعنى، وإنَّما يدلُّ ذلك على وفرةِ علمِ الزَّمخشريّ، وطلاقةِ لسانِهِ الحاضرِ في بيانِهِ، فالعلماءُ تفرَّغوا للعلمِ فأخلصوا للهِ، وخرجَ بيانُهُم على لسانِهِم، الزَّمخشريُّ بيانُهُ بيانُ علمٍ ولسانُهُ لسانُ عالمٍ، تحضر الكلماتُ والألفاظُ والحروفُ لتنطقَ بحالِ قلبِهِ وهو خشيةُ العلمِ، فالدِّقَّةُ في التعبيرِ هذهِ ليستْ لحظةَ خشوعٍ، وإنما هي جلساتُ خشيةٍ من حضورِ قلبِهِ بالعلمِ.

ولا شكَّ أنَّ السجع يُضفي نغمةً موسيقيَّةً عذبةً على النص، ويعملُ على تقويةِ المعاني وتوكيدِها، مما يجذبُ المتلقّي، ويؤثّرُ فيه؛ وذلك «لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يُداخلها مللٌ أو يخالطها فتورٌ، فيتمكَّن المعنى في الأذهانِ، ويقرُّ في الأفكارِ، ويعزُّ لدى العقولِ،...ويتوخَّاه البلغاءُ، ويقصدُهُ ذوو البيان واللّسن»[٣٩].

ومن بلاغةِ الاستعارة في وصف العمل أنَّها لم تخرجه في صورة إنسانٍ له صفاتٌ إنسانيَّةٌ معروفةٌ كالاستبقاء أو المحافظة على الصَّاحب، وإنَّما أخرجت الاستعارةُ العملَ في صورةِ الإنسانِ نفسِهِ، فكأنَّه يستبقي نفسَهُ من خلالِ ما يعملُ في دنياهُ؛ إذ ذاك ما يستبقيه بعد قضاءِ نحبِهِ، فهو يستبقي من نفسِهِ صورةً أخرى في الآخرةِ تقوم مقامَ قلبِهِ وجوارحِهِ وروحِهِ وجسدِهِ في

الدنيا، فالعملُ إنسانُ الآخرةِ وفاعلُها المستديم، فليستبقِ كلُّ امرئٍ ما يودُّ أن يرى نفسَهُ يومَ العرضِ على فاطرِ السماء وبارئ الخلْقِ والأرضِ سبحانه وتعالى.

ويستمرُّ الزَّمخشريُّ في وصفِ عملِ الإنسانِ قائلًا:

«وَيُضَاجِعُكَ غَيْرَ هَائِبٍ مِنْ مَضْجَعِكَ الْخَرِبِ،
وَيُعَانِقُكَ غَيْرَ مُسْتَوْحِشٍ مِنْ خَدِّكَ التَّرِبِ،
وَلَا يُفَارِقُكَ مَا دُمْتَ فِي غِمَارِ الْأَمْوَاتِ،
وَإِنْ أَصْبَحْتَ وَمُؤَلَّفَاتُكَ أَشْتَاتٌ، وَعِظَامُكَ نَاخِرَةٌ وَرُفَاتٌ»

أي: وَهَذَا الْعَمَلُ الَّذِي عَمِلْتَهُ فِي الدُّنْيَا يَظَلُّ تَابِعًا لَكَ وَمُرَافِقًا وَمُلَاصِقًا لِصُوقَ الضَّجِيعِ مَعَ ضَجِيعِهِ فِي مَكَانٍ خَرِبٍ غَيْرِ عَامِرٍ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ فِي "**يُضَاجِعُكَ وَيُعَانِقُكَ**"، وَرَغْمَ ظُلْمَةِ الْقَبْرِ الشَّدِيدَةِ وَوَحْشَتِهِ الشَّدِيدَةِ فَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَا يَهَابُ وَلَا يَسْتَوْحِشُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ كَنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ مُلَازَمَةِ الْعَمَلِ لِصَاحِبِهِ، وَكَأَنَّنِي بِالْإِمَامِ الزَّمَخْشَرِيِّ يَسْتَلْهِمُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

ويستلهم حديث الرسول –ﷺ– « يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»[٤٠].

وهذا العملُ من شدَّةِ ملازمتِهِ لصاحبِهِ يعانقه ويضمُّه إليه غيرَ مُبالٍ بالترابِ الذي يغمر وجهَ الإنسانِ في مقبرتِهِ، وهذا الأسلوبُ أيضًا فيه كنايةٌ عن شدةِ الملازمةِ والمصاحبةِ.

وتتجلَّى بلاغةُ الإطنابِ بالاحتراسِ في قوله: (**وَيُضَاجِعُكَ غَيْرَ هَائِبٍ مِنْ مَضْجَعِكَ الْخَرِبِ، وَيُعَانِقُكَ غَيْرَ مُسْتَوْحِشٍ مِنْ خَدِّكَ التَّرِبِ**) في وصف حالة الموت من خلال دفعِ توهُّمِ أيِّ شعورٍ بالرهبةِ أو الوحشةِ.

وعملُ الإنسان يصحبه ويلزمه حتَّى وهو قد تحولت مؤلَّفاتُهُ أي مكوناته (أعضاء جسده) إلى عظامٍ ناخرةٍ ورفاتٍ، والعظام الناخرة[٤١] هي المثقوبة المجوفة، والرفات[٤٢]: ما تكسَّر من العظام، وهذا اقتباسٌ من قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ

خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٩]، و(الألفاظ المقتبسة من القرآن الكريم أو الحديث تزيدُ الكلام قوةً وبلاغةً، كما تُضفي عليه حسنًا وجمالًا؛ إذ تبدو وسطه كالضياءِ اللَّامِعِ، والنورِ المُشْرِقِ، والمتكلمُ عندما يقتبسُ يبني كلامَهُ على الالتئامِ والتلاحُمِ، وبهذا يبدُو كلامُهُ قويًّا بليغًا)[٤٣].

وبالتأمُّلِ في وصفِهِ العملَ وتعدادِ أحوالِهِ يتبيَّنُ أنَّه وصفهُ في أعلى درجات القوَّةِ (غَيْرَ هَائِبٍ، غَيْرَ مُسْتَوْحِشٍ، وَلَا يُفَارِقُكَ)، أمَّا في حالِ وصفِهِ الإنسانَ فأبرزه في حال الضعف والتجرُّدِ من كلِّ صلةٍ، سواء من خصلةِ خيرٍ، أو خصلةِ شرٍّ (مَضْجَعِكَ الْخَرِبِ، خَدِّكَ التَّرِبِ، مَا دُمْتَ فِي غِمَارِ الْأَمْوَاتِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ وَمُؤَلَّفَاتُكَ أَشْتَاتٌ، وَعِظَامُكَ نَاخِرَةٌ وَرُفَاتٌ). وهذا فيه ما فيه من الترهيب من العملِ الطَّالحِ، والترغيب في اتباعِ العمل الصالح.

وعندما يصفُ ويصفُ ويصلُ لانقطاعِ الوصلِ يكون وصفُهُ لانقطاعِ العشيرة أشدَّ، فيجعلُ قطْعَها شديدًا، أو يجزم به جزمًا يفصل الإنسانَ عن هذه الصلةِ حيًّا ومَيِّتًا؛ ليتجرَّد من كلِّ صلةٍ سوى صلتِهِ بالله تعالى من خلال العملِ الصالح.

ويُلحظ الجناس السجعيّ بين كلٍّ من (الْخَرِبِ، ... التَّرِبِ، الْأَمْوَاتِ، ... أَشْتَاتٌ، ... وَرُفَاتٌ)، وكلُّها ألفاظٌ مُخوِّفةٌ تُلائمُ سياقَها الذي يوحي بمعاني الخراب والموت والهلاك والتشتُّت والفتات، وهذا الإيقاع الموسيقيّ بالجناس والسجع له دورٌ مُهمٌّ في إثارةِ انفعالِ المتلقي مع سياقِ النصِّ، وحضورِ ذهنِهِ، حيث إنَّ هذا الإيقاعَ جاءَ مُنبِّهًا على ذاتِ المدلول أو على صفاتِهِ[٤٤].

يقول الإمام الزمخشري:

«فَإِذَا رَاعَتْكَ نَفْخَةُ النَّشْرِ، وَفَاجَأَتْكَ أَهْوَالُ الْحَشْرِ، وَفَرَّ مِنْكَ أَبُوكَ وَأُمُّكَ وَأَخُوكَ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مُهِمٌّ يَعْنِيهِ، وَشَأْنٌ حِينَئِذٍ يُغْنِيهِ؛ وَجَدْتَ عَمَلَكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَغْبَرِ، وَسَاعَةِ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، أَتْبَعَ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ، وَأَلْزَمَ مِنْ شَعْرَاتِ قَصِّكَ، يَفِدُ مَعَكَ أَيْنَمَا تَفِدُ، وَيَرِدُ حَيْثُمَا تَرِدُ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَدُلَّكَ عَلَى فَوْزٍ مُبِينٍ، وَإِمَّا أَنْ يَدُعَّكَ إِلَى عَذَابٍ مُهِينٍ»

أي إنَّ هذا العمل الملازم للإنسان قبل وفاته وبعد وفاته، إذا ما كان يوم النشر ونفخ إسرافيلُ في الصورِ نفخةً مُروِّعةً أي مُفْزعة، حيث ينشر الناس من قبورهم أي يخرجون منها، قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، فإنَّ الإنسانَ يتفاجأ بهول الحشر وهو جمع الناس للوقوف بين يدي الله تعالى للحساب على أعمالهم، وفي هذه الساعة من هوله وشدَّته يفرُّ الوالد من ولده والأمُّ من ولدها والأخُ من أخيه، وقد كانوا ألزم الناس له وأشفقَهم عليه وأخوفَهم، فقد انشغل كلُّ واحدٍ بنفسِهِ وبأمر نجاتِهِ من هولِ هذا اليومِ وفزعِهِ.

وفي هذا اليوم يجدُ الإنسانُ عملَهُ مصاحبًا له ومرافقًا يتبعه كما يتبعه ظلُّه، وهذا كنايةٌ عن شدَّةِ الملازمة يروح معه ويغدو، وهذا العمل إمَّا أن يؤدِّي بك إلى الفوز بالنجاة والفلاح الواضح الظاهر الذي يُسرُّ صاحبَه ويجعله يتيه به على الآخرين، وإما أن يَدُعَّكَ إلى عذابٍ مهينٍ، والدعُّ يعني: السَّوْق والدَّفْع بشدةٍ وغلظةٍ، ووصف العذاب بالمهين؛ ليكون آلم للجسم وأوجع للنفس.

حصرٌ دقيقٌ لجميعِ الحالاتِ التي يكونُ عليها الإنسانُ لحظةً بلحظةٍ، وكلِّ حالاتِ الحقِّ.

وفي هذه الفقرة يركِّزُ على صلةِ الأهل؛ لأنَّها أغلى ما يملكُ الإنسان، والمرء يعيش من أجل أهلِهِ –رجلًا كان أو امرأةً– قبل أن يتزوَّجَ، فألصقُ الصلاتِ وأدومُها وأجملُها صلةُ الأهلِ.

وقولهُ: «فَإِذَا رَاعَتْكَ نَفْخَةُ النَّشْرِ، وَفَاجَأَتْكَ أَهْوَالُ الْحَشْرِ، وَفَرَّ مِنْكَ أَبُوكَ وَأُمُّكَ وَأَخُوكَ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مُهِمٌّ يَعْنِيهِ، وَشَأْنٌ حِينَئِذٍ يُغْنِيهِ» تركيبٌ مقيَّدٌ بقيدٍ زمنيٍّ يصفُ العملَ من خلالِهِ، يُشعِرُ بتحقُّقِ وقوعِ الأفعالِ بعدهُ، فيتخيَّلُها المُتلقِّي تخيُّلًا يُثيرُ في نفسِهِ الخوفَ والفزع، ويدفعُهُ إلى العملِ الصالحِ.

وقدَّم الزَّمخشريُّ الأبَ؛ لأنَّه رمزٌ للحمايةِ والأمانِ، والأمَّ؛ لأنَّها مثالٌ للرحمةِ، والأخَ؛ لأنَّهُ النَّصيرُ والدَّاعِمُ.

ولم يذكر في هذا المقامِ إلا فرارَ الأبِ والأمِّ والأخِ، فلم يذكر صاحبًا، ولا عشيرًا، ولا زوجةً، ولا ابنًا؛ لأنَّ في تخلّي مَنْ ذكرهُمْ ذهابًا لكلِّ خيرٍ وانسلاخًا عن كلِّ صلةٍ.

والتعبيرُ بأفعل التفضيلِ « **أَتْبَعَ، وَأَلْزَمَ**» أثبتُ وأبلغُ في تمام الصورةِ وثباتِ الفعلِ وقوَّتِهِ، أو قوَّة المعنى الذي يعبّر عنه الفعلُ.

وفي الشَّرطِ تكرَّر الوصفُ عن طريق العطفِ «**فَإِذَا رَاعَتْكَ نَفْخَةُ النَّشْرِ، وَفَاجَأَتْكَ أَهْوَالُ الْحَشْرِ، وَفَرَّ مِنْكَ أَبُوكَ وَأُمُّكَ وَأَخُوكَ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مُهِمٌّ يَعْنِيهِ، وَشَأْنٌ حِينَئِذٍ يُغْنِيهِ**»؛ للدلالةِ على إشراكِ الأحكامِ، ودخولِها في الشرطِ، وتواليها.

وعندما أسهب في كلِّ هذه الصفاتِ والأحوالِ التي وصف بها العملَ، استخدمَ أفعالَ القرآنِ في الدَّلالة على الجنَّةِ والنَّارِ« **ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَدُلَّكَ عَلَى فَوْزٍ مُبِينٍ، وَإِمَّا أَنْ يَدُعَّكَ إِلَى عَذَابٍ مُهِينٍ**»، فإمَّا أنْ يكونَ المصيرُ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الصفّ: ١٠]، وإمَّا أنْ يكونَ ﴿**يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا**﴾ [الطُّور: ١٣]، واستخدامُ الألفاظ القرآنيَّة ممَّا يزيدُ الكلامَ قوَّةً، وإذا كان الغرضُ منه تقويةَ الكلامِ، لم يكن بُدٌّ من تقويتِهِ بما هو أشرفُ منهُ(٤٥).

ثمَّ يختتمُ الإمامُ الزمخشريُّ مقامَتَهُ بعِبارةٍ حكيمةٍ بالغةِ العظةِ، أراد أن يحفرَها في ذهن المتلقّي، بعدَ أنْ وضعَ المتلقّي في دار الحقِّ وفي الوقتِ الحقِّ، ومن صورةِ الهزلِ في الدنيا إلى صورةِ الجدِّ في الآخرة، "وأحسن الانتهاء ما آذن بانتهاء الكلام؛ حتَّى لا يبقى للنفسِ تشوُّفٌ البتَّة"(٤٦)، فاختتم الزمخشريُّ مقامتَه بقولِهِ:

«**فَاجْهَدْ نَفْسَكَ فِعْلَ كَادِحٍ غَيْرَ مَلُولٍ، وَارْكَبْ كُلَّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، وَلَعَلَّكَ تَسْتَصْحِبُ مِنْ هَذَا الْقَرِينِ الْمُوَاصِلِ الْمُلَازِمِ، وَهَذَا الرَّفِيقِ الْمُخَاصِرِ الْمُحَازِمِ صَاحِبَ صِدْقٍ يُؤْنِسُكَ فِي مَوَاقِيتِ وَحْدَتِكَ وَوَحْشَتِكَ، وَيُلْقِي عَلَيْكَ السَّكِينَةَ فِي مَقَامَاتِ حِيرَتِكَ وَدَهْشَتِكَ، وَيُمَهِّدُ لَكَ فِي دَارِ السَّلَامِ الْمِهَادَ الْأَوْثَرَ، وَيَرِدُ بِكَ سَلْسَبِيلًا وَالْكَوْثَرَ**».

يَقُولُ: وَعَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يتْعب نَفْسَهُ تَعبًا شَدِيدًا بِغَيْرِ مَلَلٍ وَلَا سَأَمٍ، وَلَا يَتَّخِذُ أَيَّ طَرِيقٍ –سَوَاءً أَكَانَ هَذَا الطَّرِيقُ سَهْلًا أَمْ صَعْبًا– يُوَصِّلُهُ إِلَى التَّزَوُّدِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي هُوَ بِمِثَابَةِ الْقَرِينِ الَّذِي يُلازِمُ قَرِينَهُ، وَالرَّفِيقِ الْمُخَاصِرِ وَيُرَادُ بِالْمُخَاصِرِ أَنْ يَذْهَبَ كُلُّ صَدِيقٍ مِنْ مَكَانٍ، وَيَلْتَقِيَا فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ، هَذَا الْعَمَلُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَمَلَ صِدْقٍ نَافِعٍ شَافِعٍ لِلْإِنْسَانِ يَوْمَ يلْقى اللَّهَ تَعَالَى، وَيَكُونُ لَكَ مُؤَنِسًا فِي أَوْقَاتٍ تَكُونُ فِيهَا وَحِيدًا فَرِيدًا لَا أَنِيسَ وَلَا جَلِيسَ إِلَّا عَمَلُكَ الَّذِي قَدَّمْتَ، وَيُلْقِي عَلَيْكَ طُمَأْنِينَةً وَأَمَانًا عِندَ حِيرَةِ الإِنْسَانِ، وَيُوَصِّلُكَ هَذَا الْعَمَلُ لِأَنْ تَكُونَ مِنْ وَرَثَةِ دَارِ السَّلَامِ يَقْصِدُ الْجَنَّةَ، فَمِنْ أَسْمَائِهَا: دَارُ السَّلَامِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة يونس: ٢٥]، هَذِهِ الدَّارُ يَكُونُ فِيهَا الْفُرُشُ اللَّيِّنَةُ الْمُوطَّأَةُ وَالْمُذَلَّلَةُ لِصَاحِبِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا تَشُوبُهُ شَائِبَةُ رِيَاءٍ وَلَا مُفَاخَرَةٍ وَلَا حُبُّ سُمْعَةٍ وَشُهْرَةٍ، وَيَكُونُ فِيهَا السَّلْسَبِيلُ وَهِيَ عَيْنُ مَاءٍ فِي الْجَنَّةِ أَوْ اسْمٌ لِكُلِّ مَاءٍ عَذْبٍ سَهْلِ الْمَرُورِ[٤٧]، وَيَكُونُ فِيهَا الْكَوْثَرُ وَهُوَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، حَيْثُ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَقِيلَ: إِنَّ الْكَوْثَرَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [سورة الكوثر: ١].

وَيَسْتَعْمِلُ الزَّمَخْشَرِيُّ أُسْلُوبَ التَّشْخِيصِ –الاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ– فِي قَوْلِهِ: «**وَارْكَبْ كُلَّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، وَلَعَلَّكَ تَسْتَصْحِبُ مِنْ هَذَا الْقَرِينِ الْمُوَاصِلِ الْمُلَازِمِ، وَهَذَا الرَّفِيقِ الْمُخَاصِرِ الْمُحَازِمِ**»، ويُشبِّهُ كذلِكَ عَمَلَ الإِنْسَانِ بِالْقَرِينِ وَالرَّفِيقِ.

وَاسْتَعَانَ الزَّمَخْشَرِيُّ كَذَلِكَ بِالْجِنَاسِ اللاحقِ بَيْنَ الْمُفْرَدَاتِ مِنْ ذَلِكَ: «**مَلُولٍ، وَذَلُولٍ، الْمُلَازِمِ، الْمُحَازِمِ، الْأَوْثَرِ، وَالْكَوْثَرِ**»، وَهذا دأبُهُ فِي الْمَقَامَةِ كُلِّهَا، حيثُ اسْتَعَانَ بِالسَّجْعِ فِي آخِرِ كُلِّ جُمْلَتَيْنِ، وَأَيْضًا التَّنْسِيقِ وَالتَّنْظِيمِ بَيْنَ الْجُمَلِ وَحُسْنِ التَّقْسِيمِ، تأثيرًا في المتلقّي، وعملًا على إيصال المعنى إليهِ.

فكأنَّ هذه المقامةَ تُخرِجُ الإنسانَ مما يعيشُ فيه، فتجعلُهُ يعيشُ هذهِ اللحظاتِ حيًّا، تنتقلُ الصُّورةُ إلى نفسِهِ وجوارِحِهِ من خلالِ الإيقاعِ، واختيارِ الكلماتِ الأساليبِ ذاتِ الأثرِ البليغِ، ويُسْرُ أسلوبِهِ له براعةٌ في تركِ صورةِ الموتِ والعمل والجدِّ في النفسِ بكلِّ تفصيلةٍ تجعلُ المتلقّي لا ينسى ولا يغفل، إنْ غابتْ عنهُ صورةٌ ذكَّرتْهُ أخرى، وإنْ لم يرَ هذه الحالَ تكاثرتْ عليهِ أحوالٌ، فكأنَّهُ جعلَ من داخلِ المتلقّي مُصلِحًا ومُنبِّهًا لأوقاتِ الغفلةِ، فجعلتْ هذه المعاني صورةَ الآخرةِ تلزمُ الذِّهنَ كما لزمتْهُ صورةُ الدنيا.

وتأثيرُ إيقاع الكلماتِ والجناس السَّجعيّ مع صيغةِ المفاعلة، والاستعارات المتكررة في الصيغ المختلفة لصورة العمل، ووصف حال الإنسان وحال عمله المتناقضتين في القوَّةِ والضَّعف جعلت معاني الزَّمخشريّ أشدَّ زجرًا، وأوقعَ أثرًا، وأبلغَ عظةً.

فقد بدأ مقامتَهُ بالاستفهامِ والإنكار من اللعبِ واللهو مع ذكرِ هذه الأحوالِ والإطناب والاستطالة في المعاني والأوصاف، واستقصاء صور الموتِ، وصورة حال الإنسان بعد الموتِ، وهيئة أفعال العمل في الإنسانِ، وكيف أنَّه الحاكم والصاحب، مع استقصاء كلِّ حالةٍ يلزم فيها العملُ صاحبَهُ، فلم نرَ منه –إلا قليلًا– أمرًا، ولا نهيًا، ولا تكرارًا لطلبٍ، ولا زجرًا ولا تنبيهًا صريحًا أو مباشرًا يقول فيه (افعل ولا تفعل)، وكأنَّه بهذا يُثبتُ معنى خشية العلماءِ، فعندما يعلم الإنسانُ كلَّ هذا فإنَّه لا يصحُّ معه إلا الصَّلاح.

وإنَّ هذه الكلماتِ والأساليبَ التي أخرجها الزَّمخشريُّ لا بدَّ وأن يكون لها أثرٌ في النَّفسِ عاجلًا أو في آجلِ الاستدراكِ من الإنسانِ لنفسِهِ، فعظتُهُ بالصلاحِ بليغةٌ بالغةٌ كلَّ معاني التأثير، ومع كلِّ هذه العظة الشديدة في المعنى والقوَّة، إلا أنَّها خرجت في أرقى التراكيبِ والصورِ مع جمالِ الإيقاعِ الصَّوتيّ الذي يخدمُ المعنى ويُثبتُهُ في النَّفسِ ويُقرّبُهُ منها رغمَ سآمةِ الإنسانِ من معاني النُّصحِ، فهو ينصحُكَ حينَ لم ينصحْ، ويأمُرُكَ حين لم يأمرْ، وهو فقط يعرض لكَ صورةَ الجدِّ ويُقلّبُكَ بين كلِّ تفصيلةٍ فيها كأنَّها حاضرةٌ حاصلةٌ تستثير منكَ الهمَّةَ، وتُخرِجَ منكَ الصَّلاحَ حالَ سماعِكَ أو حالَ قراءتِكَ أو تلقّيكَ لبيانِهِ، فتوظيفُ كلماتِهِ كانَ دقيقًا دقَّةً بالغةً

في إخراج الصورةِ التي يريدُها بينَ عينيْكَ ويحفرُها في ذهنِكَ من خلالِ لينِ الكلماتِ أو شدَّتِها دونَ الأسلوب.

*****

الخاتمة والنتائج

بعد التطواف في مقامة الصلاح للزمخشريّ، ودراستها دراسةً بلاغيَّةً تحليليَّةً؛ خلصتِ الدِّراسةُ إلى النتائج الآتية:

- أثبتت الدِّراسةُ أنَّ مقاماتِ الزَّمخشريّ اتَّخذت طابَعًا خاصًّا ميَّزها عن المقامات الأخرى كمقامات الهمذانيّ والحريريّ، هو البعدُ الدينيّ، حيثُ اقتصر فيها على الوعظِ وتوجيهِ النُّصحِ والإرشادِ والحثِّ على التحلِّي بالفضائل.
- اتَّسمتْ مقامةُ الصَّلاحِ –محلَّ الدراسةِ– بفصاحةِ الألفاظِ وبلاغةِ المعاني، والبُعدِ عن التكلُّفِ والصَّنعةِ.
- كانتْ عظتُهُ بالصلاحِ بليغةً بالغةً كلَّ معاني التأثير، ومع كلِّ هذه العظة الشديدة في المعنى والقوَّة، إلا أنَّها خرجت في أرقى التراكيبِ والصورِ مع جمالِ الإيقاعِ الصَّوتيّ الذي يخدمُ المعنى ويُثبتُهُ في النَّفسِ ويُقرّبُهُ منها.
- جمعَ نصُّ المقامةِ بين الوعظِ الجادِّ والجمالِ الفني والأسلوبِ الرَّصين؛ ليؤدي رسالتَه بجودةٍ عاليةٍ حولَ فكرةِ الموعظةِ والإرشادِ بضرورةِ التوجُّه إلى العمل الصالحِ، والتخلي عن اللهوِ واللعِبِ بأمورِ الدُّنيا الفانيةِ.
- تنوَّعتْ أنماطُ جُملِ المقامةِ بين الخبريَّة والإنشائيَّة، فالخبريَّة كانتْ لها سياقاتُها التي استدعتِ التقريرَ والتوضيحَ والبيانَ، والإنشائيَّة ساقها في مقاماتِ تهييج مشاعرِ المتلقِّي وإثارتِهِ، ولفتِ انتباهِهِ، ولومِهِ وعتابِه وتوبيخِهِ بالاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ الذي تصدَّر قائمة الأساليب الإنشائيَّة، ثمَّ النداء الذي كانَ له دورٌ في جذب المتلقي وحضورِ ذهنِهِ وتهيئتِهِ لاستقبالِ الكلام.

- كان لتأثيرِ إيقاع الكلماتِ والجناس السَّجعيّ مع صيغةِ المفاعلة، والاستعارات المتكررة في الصيغ المختلفة لصورة العملِ، ووصف حال الإنسان وحال عمله المتناقضتين في القوَّةِ والضَّعف ما جعل معاني الزَّمخشريّ أشدَّ زجرًا، وأوقعَ أثرًا، وأبلغَ عظةً.
- أحسنَ الزمخشريُّ في الربطِ بينَ أجزاءِ مقامتِهِ وتراكيبِها، حيث بدا فيها جليًّا حسنُ الاستهلالِ، وحسنُ التخلُّصِ، وحسنُ الختامِ، مما حاز مواضع التأنُّق في الكلام.
- وازنَ الزَّمخشريُّ بينَ جملِهِ في جُلِّ تراكيب مقامتِهِ "الصَّلاح"، حيثُ قاربَ بين الجملِ في طولِها، وكانت مُعظمُ جملِهِ مُطوَّلةً، وذلك بالقيودِ التي اتَّكأ عليها في تراكيبِهِ لتربيةِ الفائدةِ، وإيصال المعنى كاملًا إلى المتلقّي.
- أضاءَ تراكيبَه، وعملَ على تقويةِ معانيه بالاقتباسِ من القرآن الكريمِ، الذي يزيد الكلامَ قوةً وتمكُّنًا.

من توصيات البحث:

- دراسة باقي مقامات الزمخشري دراسةً بلاغيَّةً نقدية، وإبراز ما فيها من حسن السبك، ودقة العبارة، وجمال الأسلوب.
- دراسة بلاغة بناء الجملة في مقامات الزَّمخشريّ.
- دراسة أثر القيود في مقامات الزَّمخشريّ.

*****

الهوامش

(١) ديوان جار الله الزمخشري، شرح: فاطمة يوسف الخيمي، دار صادر– بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م، صـ٣٩٦، ٣٩٧.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم ابن خلِّكان البرمكيّ الإربليّ (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر– بيروت، ط٧، ١٩٩٤م، (١٦٨/٥، ١٧٣).

(٣) السابق، (١٦٨/٥).

(٤) ديوان جار الله الزمخشري، صـ٣٩.

(٥) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الإمام أبو مُحَمَّد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعيّ اليمنيّ المكّيّ، المتوفَّى سنة (٧٦٨هـ)، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م، (٢٠٦/٣).

(٦) ديوان جار الله الزمخشري، صـ٣٩.

(٧) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء– الأردن، ط٣، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، (ص٢٩٠).

(٨) معجم الأدباء– إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، (٢٦٩١/٦).

(٩) وفيات الأعيان، (١٦٨/٥).

(١٠) وفيات الأعيان، (١٧٠/٥).

(١١) السابق، (١٧٣/٥).

(١٢) ينظر: نشأة المقامة في الأدب العربي، حسن عباس، القاهرة: دار المعارف، صـ٩ بتصرّف.

(١٣) المقامة، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٣م، صـ٨.

(١٤) وقد نصَّ على ذلك في مُقدِّمةِ كتابه «المقامات»، بقوله: «هذهِ مَقَاماتٌ أنشأها الإمامُ فخْرُ خوارِزْمَ أبو القاسمِ محمودُ بنُ عُمَرَ الزَّمخشريُّ، والذي ندَبَهُ لإنشائِها أنَهُ أرِيَ في بعضِ إغفاءَاتِ الفجرِ، كأنَّما صَوَّتَ بهِ منْ يقولُ لهُ «يا أبا القاسمِ أجَلٌ مكتوبٌ، وأمَلٌ مكذوبٌ، فهَبَّ مِنْ إغفاءاته تلكَ مَشخوصًا بهِ ممّا هالَهُ منْ ذلكَ ورَوَّعَهُ، ونَفّرَ طائرهُ وفزَّعَهُ، وضمَّ إلى هذه الكلماتِ ما ارتفعَت بهِ مقامَهُ وآنسَها بأخَواتٍ...» مقامات الزمخشريّ: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط ١، ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م، صـ٧.

(١٥) الزمخشريّ، د/ أحمد مُحَمَّد الحوفيّ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٠م، صـ٢٧٦.

(١٦) فنُّ المقامة العربية نشأته ومنابعه أقطابه، نزار شاهين، دار البداية ناشرون وموزعون، عمَّان– الأردن، ط١، ١٤٣٦هـ– ٢٠١٥م، صـ١٦٥.

(١٧) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية– دمشق بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، صـ٤٩٠.

(١٨) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم –ﷺ–، لعددٍ من المختصّين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط٤، ١٤٣١هـ، ١/ ٣٣.

(١٩) مقامات الزمخشريّ، صـ١١٤– ١١٧.

(٢٠) علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م، صـ١٦١.

(٢١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧ هـ)، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ١٤٢٠هـ، ١/ ٤٠٥.

(٢٢) مقامة الزهد للزمخشري دراسة بلاغية نقدية، أ.د/ مرعي سليم مرعي أحمد، مجلة الفرائد في البحوث الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، العدد ٣٥، ٢٠١٨م، صـ١٧.

(٢٣) «حتَّى» مُختصَّةٌ بغايةِ الشيءِ في نفسِهِ، والغايةُ تدخل في حكم ما قبلها مع «حتَّى». الكليات(معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسينيّ الكفويّ (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، مُحَمَّد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م، ٢/ ٢٦٠. و«أَلِفُ "مَا" إذا كانت استفهامًا، ودخل عليها حرفٌ جارٌّ، فإنها تُحذف لفظًا وخطًّا، نحو قولك: "فِيمَ" و"بِمَ"، و"عَلامَ"، و"عَم"، و"لِمَ"، و"حَتامَ"، و"إلامَ"، وإنما حذفوها؛ لأن الاستفهام له صدرُ الكلام، ولذلك لا يعمل فيه ما قبله من العوامل اللفظية إلا حروفُ الجرّ؛ وذلك لئلا يخرج عن حكم الصدر، وإنما وجب لحروف الجر أن تعمل في أسماء الاستفهام دون غيرها من الحروف؛ لتنزلها مما دخلت عليه منزلةَ الجزء من الاسم». شرح المفصل للزمخشري، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا مُحَمَّد ابن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م، ٢/ ٤٠٩.

(٢٤) غُرابُ البَيْنِ: هو غرابٌ أسْوَدُ ينوحُ نوحَ الحزينِ المُصابِ، وينعِقُ بين الخلَّانِ والأحْبابِ، إذا رأى شمْلًا مجتمعًا أنذر بشتاتِهِ، وإن شاهد ربعًا عامرًا بشَّرَ بخرابِهِ، ودروس عرَصَاته، يعرف النازل والساكن بخراب الدور والمساكن، ويحذر الآكل غصة المآكل، ويبشر الراحل بقرب المراحل، ينعق بصوت فيه تحزين. حياة الحيوان الكبرى، مُحَمَّد بن موسى

بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (ت ٨٠٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٢/ ٢٣٨.

(٢٥) معجم الفروق اللغوية، الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري [كان حَيًّا ٣٩٥ هـ]، وجزء من كتاب «فروق اللغات»، نور الدين بن نعمة الله الجزائري (ت١١٥٨هـ)، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي بـ(قُمّ)، رتّبه وبَوّبه على حروف الهجاء: الشيخ بيت الله بيات، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ، صـ٦٥.

(٢٦) الوادي: كلُّ مَفْرَج بين الجبالِ والتّلال والإكام، سمي بذلك لسَيلانه، يكون مَسْلَكًا للسيل ومَنْفَذًا، والجمع: الأودية. لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم جمال الدين الأنصاريّ، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة، د.ت، مادة: (و د ي).

(٢٧) لسان العرب، مادة: (ف و ز).

(٢٨) ديوان أمير المؤمنين علي بنِ أبي طالبٍ–كرَّم اللهُ وجهَهُ–، شرح وتقديم: د/ عمر فاروق الطبَّاع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت– لبنان، ط١، د.ت، صـ١٧٦.

(٢٩) رَادَ الكلأَ يَرُوده رَوْدًا ورِيادًا وَارْتَادَهُ ارْتِيَادًا بِمَعْنًى، أَي طَلَبَهُ. لسان العرب، مادة (ر و د).

(٣٠) دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة– دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م، صـ٢١٢.

(٣١) ديوان كعب بن زهير، شرح ودراسة: د/ مفيد قميحة، دار الشوَّاف للطباعة والنشر، الرياض– المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٠هـ– ١٩٨٩م، صـ١١٤.

(٣٢) البلاغة النبويَّة، د/ محمد رجب البيّومي، الدار المصرية اللبنانيّة، ط١، ٢٠٠٨م، صـ٢٦٢.

(٣٣) المشهورُ أنَّ (كَأنَّ) للتشبيه على الإطلاق، وذهبَ بعضُ النُّحاةِ إلى أنَّه إن كان خبرُها اسمًا جامدًا فهي للتشبيهِ، نحو: (كأنَّ زيدًا أسدٌ)، وإن كان جملةً أو مشتقًّا (فعلًا أو صفةً) فهي للشكِّ، بمنزلةِ (ظَنَنْتُ وتوهَّمْتُ) نحو (كأنَّ زيدًا قائمٌ)، فمثلُ هذا لا يكونُ تشبيهًا؛ لأنَّ خبرها المشبَّه به في المعنى هو المشبَّه، والشيءُ لا يُشبه نفسه، وجعله الكوفيُّون للتقريب. يُنظر: فن التشبيه، علي الجندي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٢م، ١/ ١٧٩، و"قد تستعمل (كَأنَّ) عند الظن بثبوت الخبر من غير قصدٍ إلى التشبيه، سواء كان الخبر جامدًا، أو مشتقًّا؛ نحو: كأنَّ زيدًا أخوك، وكأنه قائمٌ". حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، محمد بن عرفة الدسوقي، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٤٠هـ، ٣/ ١٤٥.

(٣٤) المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: د/علي بو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال– بيروت، ط١٩٩٣،١م، صـ٥٤٧.

(٣٥) خصائص الحروف العربية ومعانيها– دراسة–، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م، صـ١٠٤.

(٣٦) دراسة في البلاغة والشعر، د/ مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ- ١٩٩١م، صـ٢٠٩.

(٣٧) اللَّحْد واللُّحْد: الشَّقُّ الَّذِي يَكُونُ فِي جَانِبِ الْقَبْرِ موضِع الْمَيِّتِ لأَنه قَدْ أُمِيل عَنْ وسَط إِلى جَانِبِهِ، وَقِيلَ: الَّذِي يُحْفر فِي عُرْضه؛ والضَّرِيحُ والضَّرِيحة: مَا كَانَ فِي وَسَطِهِ. لسان العرب، مادة (ل ح د).

(٣٨) أثر السياق في اصطفاء الأساليب دراسة بلاغية، أ.د/ إبراهيم الهدهد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠١٨م، صـ٧٦.

(٣٩) الصبغ البديعيّ في اللغة العربية، د/ أحمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م، صـ ٤٩٧.

(٤٠) متفق عليه. رواه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يتبع الميت، برقم ٦٥١٤، صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب متاع الدنيا، برقم ٢٩٦٠.

(٤١) نَخِرَ العَظْمُ، فَهُوَ نَخِرٌ إِذا بَلِيَ ورَمَّ، وَقِيلَ: ناخِرة أَي فارِغة يَجِيءُ مِنْهَا عِنْدَ هُبوب الرِّيحِ كالنَّخير. لسان العرب: مادة (ن خ ر).

(٤٢) رفت الشيء: فتّه بيده كما يرفت المدر والعظم البالي حتى يترفت. وعظم رفات. أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ١/ ٣٦٧.

(٤٣) علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، أ.د/بسيوني فيود، دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ- ١٩٩٢م، صـ٢٦٨.

(٤٤) خصائص الأسلوب في الشوقيّات، مُحَمَّد الهادي الطرابلسي، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ١٩٩٦م، صـ ٦٨.

(٤٥) خصائص الأسلوب في الشوقيات، صـ٣٢٢.

(٤٦) شرح عقود الجُمان في المعاني والبيان، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطيّ المتوفَّى (٩١١هـ)، تحقيق: د/ إبراهيم مُحَمَّد الحمداني، د/ أمين لقمان الجبَّار، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١١م، صـ٣٩٥.

(٤٧) لسان العرب، مادة (س ل س ل).

ثبت المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. أثر السياق في اصطفاء الأساليب دراسة بلاغية، أ.د/ إبراهيم الهدهد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠١٨م.
٣. أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.
٤. البلاغة النبويَّة، د/ مُحَمَّد رجب البيّومي، الدار المصرية اللبنانيّة، ط١، ٢٠٠٨م.
٥. حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، مُحَمَّد بن عرفة الدسوقي، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٤٠هـ.
٦. حياة الحيوان الكبرى، مُحَمَّد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (ت ٨٠٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.
٧. خصائص الأسلوب في الشوقيات، مُحَمَّد الهادي الطرابلسي، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ١٩٩٦م.
٨. خصائص الحروف العربية ومعانيها– دراسة–، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
٩. دراسة في البلاغة والشعر، د/ مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ– ١٩٩١م.
١٠. دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ)، تحقيق: محمود مُحَمَّد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة– دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م.
١١. ديوان أمير المؤمنين علي بنِ أبي طالبٍ– كرَّم اللهُ وجهَهُ–، شرح وتقديم: د/ عمر فاروق

الطبَّاع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت– لبنان، ط١، د.ت.

١٢. ديوان جار الله الزمخشري، شرح: فاطمة يوسف الخيمي، دار صادر– بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.

١٣. ديوان كعب بن زهير، شرح ودراسة: د/ مفيد قميحة، دار الشوَّاف للطباعة والنشر، الرياض– المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٠هـ– ١٩٨٩م.

١٤. الزمخشريّ، د/ أحمد محمَّد الحوفيّ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٠م.

١٥. شرح المفصل للزمخشري، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمَّد ابن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م.

١٦. شرح عقود الجُمان في المعاني والبيان، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطيّ المتوفَّى (٩١١هـ)، تحقيق: د/ إبراهيم محمَّد الحمداني، د/ أمين لقمان الجبَّار، دار الكتب العلميّة، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠١١م.

١٧. الصبغ البديعيّ في اللغة العربية، د/ أحمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٣٨٨هـ– ١٩٦٩م.

١٨. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة– دمشق، ط٥، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

١٩. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦– ٢٦١هـ)، تحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ– ١٩٥٥م.

٢٠. علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، أ.د/بسيوني فيود، دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ– ١٩٩٢م.

٢١. علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٢٢. فن التشبيه، علي الجندي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٢م.
٢٣. فنُّ المقامة العربية نشأته ومنابعه أقطابه، نزار شاهين، دار البداية ناشرون وموزعون، عمَّان- الأردن، ط١، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.
٢٤. الكليات(معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسينيّ الكفويّ (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، مُحَمَّد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
٢٥. لسان العرب، ابن منظور مُحَمَّد بن مكرم جمال الدين الأنصاريّ، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة، د.ت.
٢٦. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت ٦٣٧ هـ)، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٤٢٠هـ.
٢٧. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، للإمام أبي مُحَمَّد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعيّ اليمنيّ المكّيّ، المتوفَّى سنة (٧٦٨هـ)، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٢٨. معجم الأدباء- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٢٩. معجم الفروق اللغوية، الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري [كان حَيًّا ٣٩٥ هـ]، وجزء من كتاب «فروق اللغات»، نور الدين بن نعمة الله الجزائري (ت١١٥٨هـ)، الناشر:

مؤسسة النشر الإسلامي بـ(قُمّ)، رتّبه وبَوّبه على حروف الهجاء: الشيخ بيت الله بيات، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٠. المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: د/علي بو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال– بيروت، ط١٩٩٣م.

٣١. مقامات الزمخشريّ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط ١، ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م.

٣٢. المقامة، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٣م.

٣٣. مقامة الزهد للزمخشري دراسة بلاغية نقدية، أ.د/ مرعي سليم مرعي أحمد، مجلة الفرائد في البحوث الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، العدد ٣٥، ٢٠١٨م.

٣٤. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء– الأردن، ط٣، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م.

٣٥. نشأة المقامة في الأدب العربي، حسن عباس، القاهرة: دار المعارف.

٣٦. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم –ﷺ–، لعددٍ من المختصِّين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط٤، ١٤٣١هـ.

٣٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد ابن مُحَمَّد بن إبراهيم ابن خلِّكان البرمكيّ الإربليّ (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر– بيروت، ط٧، ١٩٩٤م.